القسم الثاني

أحمد بن عبد العزيز بن محمد التويجري

الإيضاح والبيان في أخطاء طارق السويدان

ومعه فتاوى من هيئة كبار العلماء

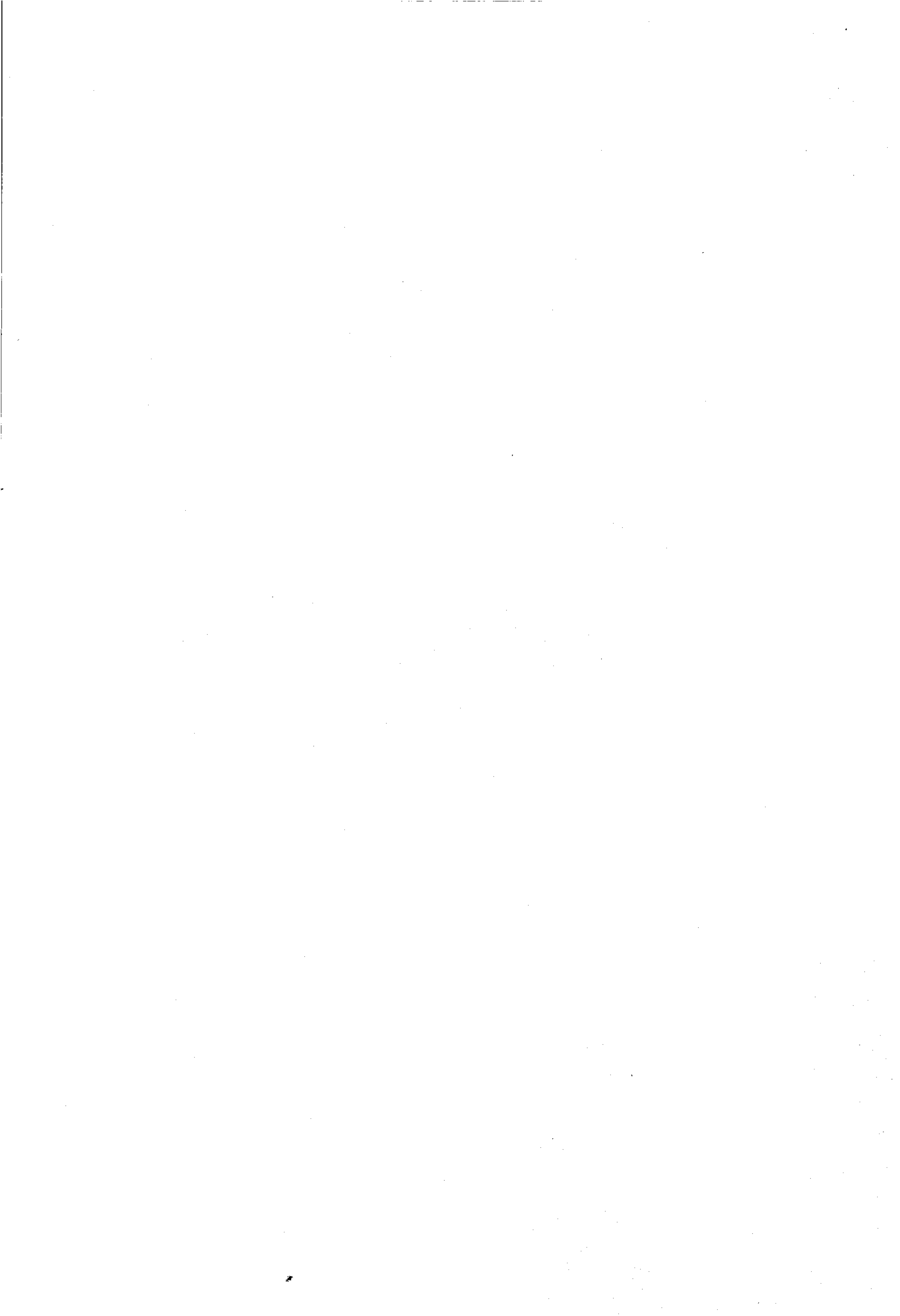
- سماحة العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز «رحمه الله».
- فضيلة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين «حفظه الله»
- فضيلة العلامة الشيخ عبد المحسن العباد « حفظه الله »
- فضيلة العلامة الشيخ صالح الفوزان « حفظه الله »
- فضيلة العلامة الشيخ عبدالله القرعاوي « حفظه الله »



مكتبة أهل الحديث
المحرق - البحرين - هاتف: ٣٤٤٦١٦



مكتبة الفرقان
تليفون: ٧٤٤٤٤٣٥-٠٦ / فاكس: ٧٤٢٤٠٩٤-٠٦
ص.ب: ٢٠٢٨٨ - عجمان - ا.ع.م.
E-mail : furqan1@emirates.net.ae



تنبيهات
على
أخطاء طارق السويدان


بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ لـه، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً مزيداً. أما بعد:

فهذا القسم الثاني من الكتاب المسمى بـ: «الإيضاح والبيان في أخطاء طارق السويدان» كتبته تحذيراً وتنبيهاً لإخواني المسلمين؛ لئلا يقعوا في هذه الأخطاء، وليحذروا منه، بغض النظر عمن وقعت منه هذه الأخطاء، فلا بد من بيان الخطأ من أي إنسان كان؛ لكي لا يقع في الخطأ من يسمع أو يقرأ هذا الخطأ، فإذا حصل الانتفاع من التحذير والبيان حصل المقصود الذي من أجله صدر هذا الكتاب.

سيكون الكلام في هذا القسم بدءاً بأشرطة قصة النهاية، ثم أشرطة السيرة النبوية، ثم أشرطة مفاهيم إسلامية.

نسأل الله للجميع السداد والتوفيق والهدى والرشاد، وأن يجعلنا جميعاً ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

كتب ذلك

أحمد بن عبدالعزيز بن محمد التويجري

قوله: (وقد بدأت الفتحة التي في سد يأجوج ومأجوج منذ زمن النبي ﷺ جاء في «صحيح البخاري» عن زينب بنت جحش أم المؤمنين -رضي اللّه عنها وأرضاها- أن رسول اللّه ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً فقال: «لا إله إلا اللّه، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلّق النبي ﷺ بأصبعيه الإبهام والسبابة. قالت زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «نعم إذا كثر الخبث». إذاً بدأت هذه الفتحة وقد يكون السد انهار ولكنهم لم يبدأوا بخروجهم بعد.

واختلف العلماء من هم هؤلاء؟ هل هم بشر ظاهرين على الأرض؟ أم بشر تحت الأرض أم في مناطق مجهولة لا نعرفها؟ على روايات كثيرة ولا يوجد دليل صحيح، لا عندي ولا عند غيري، على من هم بالضبط ولكن بتتبع الأحاديث التي تتكلم عن يأجوج ومأجوج، وبوصفهم يظهر عندي -واللّه أعلم- أنهم أهل الصين، بلا ما ندخل في تحت الأرض وفوق الأرض وغيره. قد يكون إن اللّه على كل شيء قدير، لكن جاء الوصف أنهم صفر الوجوه كالمجان المطرقة، قصار، وأعداد هائلة. يعني أحياناً بعض الناس يريد أن يفسر هذه الأمور بتفسير كأنه بعيد عن الواقع، ليس عندي دليل على هذا، لكنه أقرب إلى ما رأيت في الأدلة، وأقرب إلى ما نرى في الواقع، واللّه أعلم بشأنهم حتى لا نذهب بعيداً في الخيالات)اهـ[1].

---

(١) انظر: «قصة النهاية» لطارق السويدان، الشريط الرابع، الوجه (أ).

هكذا قال طارق السويدان إن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين، والقول بأن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين قول مخالف مصادم للأدلة من الكتاب والسنة، مجانب لعقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة.

وقبل البدء -أخي القارئ الكريم- في الرد على هذا القول الفاسد، أُقدِّم مقدمة تتعلق بعقيدة أهل السنة والجماعة السائرين على منهج السلف الصالح حول يأجوج ومأجوج:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُواْ يذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * اتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ اتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف: ٩٣-٩٩].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

فهذان الموضعان من كتاب الله يدلان دلالة واضحة على خروج

يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة، وأن خروجهم أحد علامات الساعة التي تكون قبل قيامها، وقد ورد في السنة عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة تدل على ذلك وتوضِّحه وتبيِّنه:

منها: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري -رضي الله عنه- قال: طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف؛ خسف في المشرق، وخسف في المغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

ومنها: حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «فبينما هو كذلك إذ أوحى اللّه إلى عيسى: أن قد أخرجت عباداً لي، لا يَدَان لأحدٍ بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث اللّه يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدبٍ ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي اللّه عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي اللّه عيسى وأصحابه،

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٢٥)، والترمذي (٤/٤٧٧)، وأبوداود (٤/١١٥)، وأحمد في «المسند» (٤/٦).

فيرسل اللّه عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي اللّه عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه نتنهم، فيرغب نبي اللّه عيسى وأصحابه إلى اللّه، فيرسل اللّه طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث يشاء اللّه، ثم يرسل اللّه مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك...»[1].

ومنها: حديث أبي هريرة -ﷺ- عن رسول اللّه ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحضرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد اللّه ﷻ أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً -إن شاء اللّه- ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم...»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٥١٠)، والترمذي (٥/٣١٣)، وابن ماجه (٢/١٣٦٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤/٤٨٨)، وقال: **(صحيح على شرط الشيخين)**، ووافقه الذهبي.

ومنها: حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعثون في الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يابساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذاك النهر فيقول: لقد كان ها هنا ماءً مرة...»[1].

وعقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة في يأجوج ومأجوج كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة:

الإيمان بخروج هاتين القبيلتين من بني آدم قبل قيام الساعة وبعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال، وذلك بعد اندكاك السد الذي هم منحازون وراءه منذ بناه ذو القرنين، فتنبه فإنه مهم جداً.

فإذا خرجوا يحصل على أيديهم أذى وفتنة وشر عظيم.

قال البغوي -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ...﴾ الآية: «أي: يريد فتح السد عن يأجوج ومأجوج ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني القيامة. قال الفراء وجماعة: الواو في قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ﴾ مقحمة، فمعناه: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٧٧)، وابن ماجه (٢/١٣٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٤٨٩) وقال: (**صحيح على شرط مسلم**)، ووافقه الذهبي.

الحق...»[١].

وقال ابن العربي -رحمه اللّه-:«وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وهما أمتان مضرتان مفسدتان كافرتان»[٢].

وقال ابن كثير -رحمه اللّه-:«... قد كانوا يعيثون في الأرض ويؤذون، فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد حتى يأذن اللّه بخروجهم على الناس»[٣].

وقال السفاريني -رحمه اللّه- في«لوامع الأنوار البهية»: «... خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر، وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل[٤]، فوجب اعتقاده»[٥].

قال الشيخ العلاّمة عبدالرحمن بن قاسم في شرحه[٦] لعقيدة السفاريني: «وقد كفهم اللّه بردم ذي القرنين، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً * قَالَ هَـذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ

---

(١) «معالم التنزيل» (٣/٢٦٨).

(٢) «عارضة الأحوذي» (٩/٣٤).

(٣) «نهاية البداية والنهاية» (١/١٨٤).

(٤) العقل ليس له مجال سواء تصور هذا أو لم يتصوره، فمتى صحَّ الحديث وثبت عن رسول اللّه ﷺ وجب التسليم والانقياد لما صحَّ، فلا نعارض الأحاديث الصحيحة الثابتة بالعقل، فتنبه جعلك اللّه من أهل النعيم.

(٥) (٢/١١٦).

(٦) (ص٨١).

دَكَّاءَ﴾ فيخرجون، ويحرز عيسى عباد اللّه إلى الطور كما ثبت، ويرغب عيسى وأصحابه إلى اللّه فيرسل اللّه عليهم النغف فيصبحون موتى...».

وبعد هذا البيان -أيها الأخ الكريم المبارك- عن عقيدة السلف الصالح في يأجوج ومأجوج، نبدأ بالردِّ على قول طارق السويدان: إن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين، والرد سيكون -بعون اللّه وتوفيقه- من عدة وجوه:

أحدها: أن هذا القول -وهو أن أهل الصين هم يأجوج ومأجوج- مخالف لما ثبت في النصوص من أن خروج يأجوج ومأجوج لا يكون إلا بعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجال.

الثاني: أنه ثبت في نصوص أنهم لا يمكثون بعد خروجهم إلا فترة يسيرة من الزمان، وأهل الصين موجودون على هذه الحالة التي هم عليها الآن من أزمان طويلة.

الثالث: أنه ثبت في القرآن والسنة أن السد الذي هم منحازون وراءه لا يندك إلا إذا دنا قيام الساعة، وهذا -أخي القارئ الكريم- مهم جداً؛ لكي تعرف يا رعاك اللّه أن يأجوج ومأجوج منحازون خلف السد، كما ثبت ذلك في القرآن العظيم وصحيح سنة سيد المرسلين ﷺ.

الرابع: أن القول بأن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين يخالف ما أخبر اللّه جلَّ وعلا به عن ذي القرنين: أنه جعل بين الناس وبين يأجوج ومأجوج سداً كبيراً من حديد، وأنهم لا يستطيعون نقبه إلا عند اقتراب الساعة فتنبه.

الخامس: أنه ثبت في النصوص أنه إذا خرجت الآيات العظام تتابعت

على إثرها باقي الآيات، كما يتتابع الخرز في النظام، وأهل الصين هم أمد طويلة على هذه الحال، ومع ذلك لم يخرج شيء من الآيات العظام(١).

ويقال -أيضاً-: إن قول طارق السويدان إن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين، يتعارض مع ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ من أن يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله ﷻ أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم.

وهذا لم يحصل من أهل الصين، بل هم ينتقلون متى شاءوا إلى أي مكان شاءوا، وليس هناك سد يمنعهم أو حاجز يعوقهم.

وبعد هذا البيان الواضح، إليك -أيها الأخ الموفق- ما قاله كبار علماء أهل السنة والجماعة السائرون على منهج السلف الصالح؛ لكي تتضح لك المسألة، وتكون على بينة ساطعة جلية واضحة لا لبس فيها، بيضاء نقية.

يقول العلاَّمة الفقيه الشيخ عبدالله بن علي بن يابس في كتابه الماتع

---

(١) انظر: «الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة» لفضيلة الدكتور/ عبدالرزاق البدر (ص٢٤٥) وما بعدها.

النافع «إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام»:

«أما خروج يأجوج ومأجوج فقد نطق به القرآن في موضعين وجاءت الأحاديث الصحيحة ناطقة بذلك، والجميع لا تحتمل التأويل، وقد نقلها المسلمون واعتقدوها ودانوا بها، فمن الآيات: قول الله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: طريقاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُواْ يـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * اتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ اتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً * قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ فإن هذه الآيات تذكر أن ذا القرنين الذي جاب الأرض بقوته وصل إلى ركن من الأرض يسكنه قوم متأخرون في عقليتهم وفي أفهامهم، ويجاورهم قوم يسمون يأجوج ومأجوج، وتصرح الآية بأنهم يخرجون من أرضهم على هؤلاء البدائيين المجاورين لهم، ويوسعونهم قتلاً ونهباً وتخريباً لكل ما لديهم من متاع ومنافع، وأنهم يخرجون عليهم من طريق بين جبلين عظيمين، وأن هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً حينما رأوا قوة ذي القرنين وعظمتها، ولما ذاقوا من ألوان العذاب

وأصناف الإفساد من خرجات يأجوج ومأجوج، وطلبوا من ذي القرنين أن يسد الطريق الذي يخرج منه عليهم يأجوج ومأجوج، وأن يدفعوا له خراجاً من المال، وأن ذا القرنين أخبرهم بأن اللّه قد مكنه من العلم والمعرفة والاختراع، وطلب منهم أن يحضروا له ما لديهم من قوة من العمال والحديد والنحاس وغير ذلك فإذا فعلوا، فسيجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج ردماً لهذا النقب الذي بين الجبلين العظيمين، وطلب منهم إحضار قطع الحديد الكبيرة ﴿اتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ ثم ملأ النقب الذي بين الجبلين بزبر الحديد حتى استوى بالجبلين المجاورين له، ثم أوقد عليه النار، واستعمل ما أعطاه اللّه من المهارة، وما وهبه من العلم والمعرفة، حتى ذاب الحديد وصار ناراً، ثم صبَّ عليه القطر -وهو النحاس المذاب الذي يغلي- فصار سداً جامداً صعب المرتقى يصعُب نقبه وحفره، ثم أخبر أن هذا الصنع الذي صنعه والعمل الذي عمله إنما هو رحمة من اللّه بأهل الأرض جميعاً، وأن اللّه أيده في هذا الأمر وعلَّمه هذا العمل، وأخبر ذو القرنين أن هذا السد لفتحه موعد محدد، ولخروج من وراءه من يأجوج ومأجوج ميقات معلوم[1]، فإذ جاء ذلك الموعد وحضر ذلك الميقات دكه اللّه دكاً، أي هدَّه هدًّا، وحينئذٍ يموج بعضهم في بعض

---

(١) تنبه أخي القارئ الكريم لكلام هذا الإمام الجهبذ من أن يأجوج ومأجوج يخرجون من وراء السد، أي أنهم منحازون خلف السد، ليسوا مخالطين لنا بني البشر وبذلك تعرف خطأ طارق السويدان من أن أهل الصين هم يأجوج ومأجوج.

أي يموج يأجوج ومأجوج في عالم الأرض، أو يموج بعض مأجوج ومأجوج في بعضهم، وأخبر تعالى أن فتح السد وخروج يأجوج ومأجوج، ودخولهم على أهل الأرض دخول الموج المندفع، يعقبه هلاك العالم، وقيام الساعة، والنفخ في الصور، فهذه الآيات تبين أن يأجوج ومأجوج -بصريح العبارة- موجودون، كما ثبت أن بينهم وبين أهل الأرض سداً بناه ذو القرنين بالحديد والقطر، وأن بناء هذا السد رحمة من اللّه لأهل الأرض، وأنه سَيُدك ويزول في موعد محدد، وأن يأجوج ومأجوج حينئذٍ سيخرجون إلى أهل الأرض كالموج المندفع، وأنه عند ذلك تقوم الساعة، وينفخ في الصور، هذا ما يستخلص من هذه الآيات بصريح التعبير الذي لا يحتمل التأويل.

أما من طمس اللّه على قلوبهم، و لم يوفقهم إلى فهم كتابه، ولا إلى قبول سنة رسوله، فإنهم راحوا يؤولون الآيات بأنها كناية، وينبذون ما صح عن النبي ﷺ في ذلك»[1].

ثم قال -رحمه الله وأكرم مثواه-: «وهاك الآية الأخرى، وهي قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وفتح يأجوج

---

(١) انظر: «إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام» للعالم الجليل عبداللّه ابن يابس (ص١٢٢).

ومأجوج في هذه الآية هو دك السد المذكور في آية الكهف، فالقصة واحدة والقرآن يفسِّر بعضه بعضاً[١]... وقد اغتر الذين جعلوا آيات القرآن كناية، وكذبوا الأحاديث، فقالوا: لماذا لم يعثر الإفرنج على أرض يأجوج ومأجوج، وهم قد مسحوا الأرض، وطاروا في الفضاء؟ فلو كان هناك حقيقة اسمها يأجوج ومأجوج غير البشر المعروفين لنا لرأوهم وعرفوهم، كما فهمتم بأنه صريح القرآن والمروي في السنة الصحيحة.

وجوابنا على ذلك من وجوه:

الأول: أنه لا يلزم من وجود الشيء في مكان أن يعرف ذلك الشيء ويعثر على مكانه عقلاً، فالعقل لا يحتِّم، ذلك بدليل أن الأنفس التي بين جنبي الإنسان لا يعرفونها، ولا يدرون من أي شيء هي، ومن جهل نفسه التي بين جنبيه فهو أجهل بما في زوايا الأرض وخباياها التي بينهم وبينها سدود الجبال الشامخات، والظواهر التي أودعها اللّه في الكون، وإذا كان وجود الشيء في مكان لا يستلزم العلم به ولا بمكانه عقلاً، فدعواكم أنهم اطلعوا على كل شيء دعوى باطلة بلا دليل، والعقل يأباها.

الوجه الثاني: أننا نسمع في كل حين من إذاعات الغرب أنفسهم، وما تنشره الجرائد، من أنهم اكتشفوا جزيرة في موقع كذا، وتحد بمكان كذا، في يوم كذا، وهذا برهان على جهلهم بالأرض القريبة لهم، ودليل على بطلان دعواكم.

الوجه الثالث: أن جهل الإفرنج واضح جلي، فأرضهم مملوءة

---

(١) انظر المصدر السابق (ص١٢٥).

بالمعادن والخيرات، وهم أحرص الناس على تحصيلها والعثور على ذلك، وفي كل حين يظهر جهلهم بما يكتشفون في أرضهم، فلو كانوا كما تدعون فيهم لما كان كل حين اكتشافات منجم أو معدن أو بترول أو غير ذلك.

الوجه الرابع: أن جهلهم بالبديهيات أمر ظاهر ومفروغ منه، وذلك في الاجتماعيات والقوميات، وعاداتهم وطباعهم وأخلاقهم، والله يظهر كل حين جهلهم بما يعلنون أنهم اكتشفوه وعثروا عليه.

كل يوم تبدي صروف الليالي خلقاً من أبي سعيد غريباً

الوجه الخامس: إن من البديهي في هذه الدنيا عند كل أحد أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وهذا الكون أرضه وسماؤه وما فيهما أعظم صنعة، ومع ذلك فإن أكثر الإفرنج -أيها الأفراخ- لا يعترفون بصانع هذا الكون القوي العزيز الحكيم العليم الخبير، فهل من يجهل أكبر البديهيات يستحق أن يدعي في علمه الإحاطة والتمام؟؟!

الوجه السادس: «أن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أصدق من كل أحد، وأن كل مسلم يعتز بإيمانه لا يمكن أن يكذب الله ورسوله في أخبارهما ويصدق أعداءهما الذين جهلهم من أوضح الواضحات»[1].

وبعد هذه النقولات -أيها الأخ الموفق- من هذا العالم الجليل، وبيانه الواضح الجلي، وتقريره لعقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة في

(١) المصدر السابق (ص١٢٦).

يأجوج ومأجوج، ننتقل إلى عالم فـذ بيَّـن عقيـدة أهـل السـنة في يـأجوج ومأجوج أتمَّ بيان، ذلك هو علاّمة زمانه المحدث العلاّمة حمود بن عبداللّـه التويجري في كتابـه القيـم:«إتحـاف الجماعـة بمـا جـاء في الفـتن والملاحـم وأشراط الساعة».

يقول -رحمه اللّه وأكرم مثـواه-: «وقـال الشـيخ محمـد بـن يوسـف الكافي في كتابه «المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خـبر رب البريـة» ما نصه: (السد حق ثابت، ولا ينفتح ليأجوج ومأجوج إلا قرب الساعة، فمن قال بعدم وجـود سـد على وجـه الأرض، ومسـتنده في ذلـك قـول الكشافين من النصارى، وأنهم لم يعثروا عليـه، يكفـر، وقـد وقـع للشـيخ عبدالرحمن قاضي المرج مع متصرف بني غازي، فإنه قال في جمـع عظيـم: إنه لا سد في الأرض موجود؛ لإخبار السائحين في الأرض من النصـارى. فقـام الشـيخ عبدالرحمـن إليـه أمـام الحـاضرين، وقـال: كفـرت، تُصـدِّق الكشافين، وتكذِّب رب العالمين!! ثم تدارك المتصرف نفسه، وقـال: إنمـا قلت ذلك على طريق الحكاية عنهم، ولست معتقداً ذلك).

قال الكافي: «ولا يكون قول الكشافين شبهة تنفي عنه الكفـر؛ لأنـه لو كان إيمانه ثابتاً، لما تـرك قـول اللّـه تعـالى وقـول رسـوله ﷺ المسـتحيل عليهما الكذب وتبع قول من لا دين له» انتهى.

قال الشيخ العلامة حمود التويجـري:«وبعـض العصريـين يزعمـون أن

يأجوج ومأجوج هم جميع الكفار المتفوقين في الصناعات الحديثة[١]، وقد رأيت هذا القول الباطل في بعض مؤلفات المتكلفين من العصريين[٢]، وهذا القول قريب من القول الأول، وقد صرَّح الشيخ محمد بن يوسف الكافي بتكفير من قال به، كما سيأتي في كلامه قريباً -إن شاء الله تعالى-.

ووجه القول بتكفير من قال به: أنه يلزم عليه تكذيب ما أخبر اللّه به في كتابه عن السد، وأنه قد حال بين يأجوج ومأجوج وبين الخروج على الناس، وأن يأجوج ومأجوج ما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباً، وأنه إذا جاء وعد الرب تبارك وتعالى -:أي في آخر الزمان، إذا دنا قيام الساعة-؛ جعله دكاء، فخرجوا على الناس وذلك بعدما ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض، ويقتل الدجال، وقد جاء ذلك صريحاً في عدة أحاديث صحيحة تقدم ذكرها[٣].

وقد قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

---

(١) ويدخل في دول الكفر أهل الصين الذين هم يأجوج ومأجوج عند طارق السويدان.

(٢) ما أكثر هؤلاء المتكلفين من الذين يقال لهم أصحاب الفكر المستنير، وهم في حقيقتهم أصحاب الفكر المظلم؛ لأنهم يريدون تفسير الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة تفسيراً يتوافق مع أهوائهم وعقولهم السقيمة.

(٣) كما في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري -ﷺ- المتقدم (ص٨).

وفي هاتين الآيتين أبلغ رد على من زعم أن يأجوج ومأجوج هم دول الإفرنج أو غيرهم من دول الشرق[١] والمغرب، الذين لم يزالوا مختلطين بغيرهم من الناس[٢]، ولم يجعل بينهم وبين الناس سد منيع يحول بينهم وبين الخروج على الناس.

وقال الشيخ محمد يوسف الكافي التونسي في كتابة «المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خبر رب البرية» ما نصه: «المسألة الثانية والثلاثون: يأجوج ومأجوج هم أناس بالغون في الكثرة عدداً لا يعلمه إلا اللّه تعالى، ولا يستطيع أحد مقاومتهم عند خروجهم من السد؛ لكثرتهم، وهم مفسدون في الأرض كما أخبر اللّه تعالى عنهم، وهم الآن منحازون عن غيرهم بالسد الذي بناه ذو القرنين، وخروجهم علامة على قيام الساعة، فمن قال واعتقد أن يأجوج ومأجوج هم أوروبا يكفر؛ لتكذيبه اللّه تعالى في خبره: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

قال حبر هذه الأمة عبداللّه بن عباس رضي اللّه عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فحينئذٍ يخرجون ﴿وَهُم﴾

---

(١) كقول طارق السويدان أن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين!!؟

(٢) تنبه لكلام أسد السنة العلاّمة حمود التويجري وهو يحكي عقيدة أهل السنة والجماعة في يأجوج ومأجوج بأنهم خلف السد، والرد على من قال: إنهم هؤلاء دول الكفر أو دول الشرق كأهل الصين أو دول الغرب، الذين لا يزالون مختلطين بغيرهم من الناس، فتنبه ألبسك اللّه ثياب الصحة والعافية.

يعني: يأجوج ومأجوج ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ من كل أكمـة ومكـان مرتفـع ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجـون ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ دنـا قيـام السـاعة عنـد خروجهم من السد[١].

..... وقد تبعه على باطله وجهله صاحب كتاب: «دليل المستفيد على كل مستحدث جديد» فزعم أن التتار هم أوائل يأجوج ومأجوج، وزعم في موضع آخر من كتابه أن يأجوج ومأجوج قد تفرقوا في الأرض، وصاروا دولاً في آسيا وأوربا وأمريكا.

ومن المعلوم أن دول آسيا[٢] وأوربا وأمريكا لم تزل في أماكنها منذ زمان طويل، وأنه ليس بينهم وبين غيرهم سد من حديد يمنعهم من الخروج والاختلاط بغيرهم من الناس!! فصفة يأجوج ومأجوج لا تنطبق على شيء من الدول المعروفة الآن.

وقد تقدم في عدة أحاديث صحيحة [٣] أن يأجوج ومأجوج إنما يخرجون بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال، وأنهم لا يمكثون بعد خروجهم على الناس إلا مدة يسيرة، ثم يدعو عليهم نبي اللّه

---

(١) انظر: «إتحاف الجماعة بما ورد في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» لصاحب الفضيلة العلاّمة حمود التويجري (١٦٩/٣) وما بعدها.

(٢) وأهل الصين من دول آسيا، وأهل الصين عند طارق السويدان هم يأجوج ومأجوج.

(٣) كما في حديث حذيفة بن أسيد -رضي الله عنه- المتقدم (ص٨).

عيسى، فيهلكهم اللّه جميعاً كموت نفس واحدة، فهم بلا شك أمة عظيمة، قد حيل بينهم وبين الخروج على الناس بالسد الذي بناه ذو القرنين، وهذا السد لا يندك إلا إذا دنا قيام الساعة، كما أخبر اللّه بذلك في كتابه العزيز.

والواجب على المسلم: الإيمان بما أخبر به في كتابه عن السد ويأجوج ومأجوج، وما صح عن النبي ﷺ في ذلك، ولا يجوز للمسلم أن يتكلف ما لا علم له به، ولا يقول بشيء من أقوال المتكلفين المتخرصين[١]، بل ينبذها وراء ظهره، ولا يعبأ بشيء منها[٢].

وقد زاد العلاّمة المحدث حمود بن عبداللّه التويجري من البيان حول هذه المسألة المهمة التي يتقول بها من قل علمه، في كتابه الفريد في بابه «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر» في أثناء رده على من تكلف وتأول وتخرص، من غير نظر إلى ما في كتاب اللّه ﷻ وصحيح سنة رسول اللّه ﷺ.

---

(١) أخي المبارك، خذ بهذه النصيحة التي صدرت من إمام من أئمة أهل السنة ودع عنك قول من قلّ علمه، وتجنب أقوال المتكلفين المتخرصين، وتمسك بالسنة والأثر، والزم غرز أئمة أهل السنة، هُديت للخير ورُزقت قلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً.

(٢) انظر: «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» للعالم الجليل حمود التويجري (١٧٣/٣) وما بعدها.

«ومنها: حديث عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلي ربي عز وجل إن الدجال خارج ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطأون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه. قال: ثم يرجع الناس يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليَّ ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك إن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متي تفاجئهم بولادها ليلاً أو نهاراً» [رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم ووافقه الذهبي على تصحيحه، زاد ابن ماجه والحاكم فيه: قال العوام - وهو ابن حوشب، أحد رواته- فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ثم قرأ ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾.

ومما يرد به أيضاً على المتخرصين الزاعمين أن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر: ما جاء في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري -رضي الله عنه- قال: طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «وما تذاكرون؟» قالوا: نتذاكر الساعة قال: «إنه لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف؛ خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» [رواه الإمام أحمد، وأبوداود الطيالسي، ومسلم واللفظ له، وأهل السنن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح عن واثلة بن الأسقع -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ نحوه، رواه الطبراني، والحاكم ووافقه الذهبي على تصحيحه]. وفي هذين الحديثين دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج إنما يكون قبيل قيام الساعة، وأن خروجهم من جملة الآيات الكبار المؤذنة باقترابها[١].

ثم قال -رحمه الله وأكرم مثواه-:«والمقصود هنا بيان أنه يجب الإيمان بما أخبر الله به في كتابه عن السد ويأجوج ومأجوج، وأن يأجوج ومأجوج ما اسطاعوا أن يظهروا السد، وما استطاعوا له نقباً، وأنه إذا جاء وعد الرب تبارك وتعالى جعله دكاء.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في الكلام على قول الله تعالى

---

(١) انظر: «الاحتجاج بالأثر» للعلامة حمود التويجري (ص٣١٢).

مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي الوقت الذي قدّر خروجهم في آخر الزمان ﴿جَعَلَهُ دَكَّاء﴾ أي: مساوياً للأرض ولا بد من كون هذا، وهذا قال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقّ﴾ الآية.

ولهذا قال ها هنا ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني يوم فتح السد على الصحيح»[1] انتهى.

ثم قال -رحمة الله عليه- «الوجه الثاني: أن يقال: ما ذكره في يأجوج ومأجوج أنهم أمم الكفار على اختلاف أجناسهم وأوطانهم[2]، فهو قول مخالف لما أخبر الله به عن ذي القرنين أنه جعل بين الناس وبين يأجوج ومأجوج سداً من حديد، وأن يأجوج ومأجوج ما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباً، وأنه إذا جاء وعد الرب تبارك وتعالى جعله دكاء، وحينئذٍ يخرجون على الناس وذلك في آخر الزمان عند اقتراب الساعة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقّ﴾. و(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وفي قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ لما يستقبل من الزمان، وهذا يدل على أن يأجوج ومأجوج لم يزالوا وراء السد حتى يأتي وقت خروجهم في آخر الزمان، وفي قوله:

---

(١) انظر: «الاحتجاج بالأثر» للعلامة حمود التويجري (ص٣٢١).

(٢) وأهل الصين الذين ذكرهم طارق السويدان يدخلون من ضمن أمم الكفار على اختلاف أجناسهم وأوطانهم.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقّ﴾ دليل على أنهم إنما يخرجون إذا دنا قيام الساعة[١].

ثم قال -رحمه الله-: «الوجه السادس: أن يقال: قد أخبر الله تعالى أن فتح يأجوج ومأجوج إنما يكون عند اقتراب الساعة، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أوضح دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج إنما يكون عند اقتراب الساعة، ويدل على ذلك ما أخبر الله به عن ذي القرنين أنه لما تم بناء السد: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾.

قال السدي في قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس.

قال ابن كثير: وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال. انتهى»[٢].

أخي القاري الكريم: لقد أجاد وأفاد صاحب الفضيلة العلاّمة حمود ابن عبدالله التويجري -رحمه الله تعالى- في بيان عقيدة أهل السنة والأثر في يأجوج ومأجوج، وردَّ رداً مفحماً على من تكلّف وتخرَّص في كتاب

---

(١) تنبه -يا رعاك الله- للفائدة في تفسير (إذا) فإنه مهم جداً يبين لك دلالة القرآن العظيم في يأجوج ومأجوج، وانظر: «الاحتجاج بالأثر» (ص٣٢٣).

(٢) انظر: «الاحتجاج بالأثر» (ص٣٢٥).

اللّه سبحانه وبحمده، وعلى سنة رسوله ﷺ وعلى من قال إن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر الموجودون الآن.

وبهذا يتبين لك الخطأ الكبير الذي أقدم عليه طارق السويدان، ولو أنه -هداه اللّه- رجع لأهل العلم من أهل السنة الراسخين وسألهم، استجابة منه لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ لكان أولى به وأحرى، ولكفى نفسه هذا التأويل البعيد كل البعد عما جاء في كتاب اللّه سبحانه وتعالى، وصحيح سنة رسول اللّه ﷺ وأقوال العلماء المحققين من أهل السنة والأثر، فإن شفاء العي السؤال.

أخي القارئ الكريم: لقد ردَّ رداً شافياً العلامة الفقيه صالح بن فوزان الفوزان في كتابه الفذ الرائع «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد» على من تأول وتكلف وقال إن يأجوج ومأجوج هم دول الكفر، فقال -وفقه اللّه تعالى-: «وقد أنكر بعض الكتاب العصريين وجود يأجوج ومأجوج ووجود السد!! وبعضهم يقول: إن يأجوج ومأجوج هم جميع دول الكفر المتفوقة في الصناعة!! ولا شك أن هذا تكذيب لما جاء في القرآن، وتكذيب لما صحّ عن رسول اللّه ﷺ، أو تأويل له بما لا يحتمله، ولا شك أن من كذب بما جاء في القرآن أو صحّ عن رسول اللّه ﷺ، فهو كافر، وكذلك من أوله بما لا

يحتمله، فإنه ضال ويخشى عليه من الكفر»[1].

أيها الأخ المبارك: هناك كلام كثير لكبار علماء أهل السنة لمن تكلف وتخرّص وخالف الكتاب العزيز والسنة المطهرة في مسألة يأجوج ومأجوج، وهو من درر الكلام وجواهره، خشيت من كثرة النقولات الخروج عن منهج كتابنا هذا، وهو الاختصار غير المخل بإذن اللّه تعالى، وختاماً -أخي القارئ الكريم- أنقل لك كلام الإمام العلاّمة الفقيه الأصولي اللغوي المحدث، شامة أهل شنقيط وعالمهم، ودرة وجوهرة علماء المملكة العربية السعودية، العلامة الجهبذ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه اللّه وأكرم مثواه- في الرد على من تأول وتكلف وتخرّص في كتاب اللّه وصحيح سنة رسول اللّه ﷺ قال -رحمة اللّه عليه-: قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾.

أولاً: أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود، وقد بينه النبي ﷺ، فإنا نتمم بيانه بذكر السنة المبينة له، وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك. فإذا علمت فاعلم أن هاتين الآيتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة، فصار

---

(١) انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» لصاحب الفضيلة العلامة صالح بن فوزان الفوزان (ص٢٦٩).

بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود، واللّه جل وعلا قال في كتابه لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة، وآية الأنبياء، قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله اللّه دكا عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه. وقد دلتا على أنه بقرب يوم القيامة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الآية. وأظهر الأقوال في الجملة المقدرة التي عوض عنها تنوين (يومئذٍ) من قوله ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: أنه إذا جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض، ولا ينبغي العدول عن هذا القول؛ لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم. وإذا تقرر أن معنى (يومئذٍ) يوم إذا جاء الوعد بخروجهم وانتشارهم، فاعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ على القول بأنه لجميع بني آدم، فالمراد: يوم القيامة. وإذاً فقد دلت الآية على اقترانه بالخروج إذا دك السد، وقربه منه. وعلى القول بأن الضمير راجع إلى يأجوج ومأجوج، فقوله بعده: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يدل في الجملة على أنه قريب منه. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾: «هو إشارة إلى السد، أي: أن هذا السد نعمة من اللّه ورحمة على عباده، أو: هذا الإقدار والتمكين من تسويته: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني: فإذا دنا مجيء يوم القيامة، وشارف أن يأتي، جعل السد دكاً، أي: مدكوكاً مبسوطاً مسوًّى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك، ومنه الجمل الأدك المنبسط

السنام»[١] اهـ.

وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية؛ لأن قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل في الجملة على ما ذكرنا في تفسير آية الكهف التي نحن بصددها. وذلك يدل على بطلان قول من قال: إنهم روسية[٢]، وأن السد فتح منذ زمان طويل[٣].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/٤٩٩).

(٢) ومثله قول طارق السويدان إن يأجوج ومأجوج أهل الصين، وقد عرفت -أيها الأخ الموفق- من كتاب اللّه ﷻ وسنة رسوله ﷺ وأقوال العلماء المحققين أن يأجوج ومأجوج خلف السد، والسد لا يعرف مكانه، فإذا اقترب يوم القيامة خرج يأجوج ومأجوج من خلف السد، كما تقدم لك بيان ذلك.
بقي أن تعرف أن طارقاً السويدان يقول إنه من خلال تتبعه للأحاديث جاء في وصف يأجوج ومأجوج أنهم كالمجان المطرقة، صفر الوجوه، قصار، وأعداد هائلة، مع أن بعض الجهوريات الروسية يجمعهم مع أهل الصين الأوصاف التي ذكرها طارق السويدان، فلم لا يكونون من ضمن يأجوج ومأجوج على كلٍ فلو أنه رجع لأهل العلم الراسخين لما تكلف وتأول هذا التأويل المخالف لكتاب اللّه سبحانه وبحمده، وسنة رسوله ﷺ؛ فكن -أخي المسلم- وأختي

ثم أورد -رحمه اللّه- حديث النَواس بن سمعان في أشراط الساعة، الذي يتضمن خروج الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وهو في «صحيح مسلم» في الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم (١١٠).

ثم علق -رحمة اللّه عليه- على هذا الحديث بكلام أنفس من الذهب، فقال -رحمه اللّه-: «وهذا الحديث قد رأيت فيه تصريح النبي ﷺ: بأن يوحى إلى عيسى ابن مريم بعد قتله الدجال. فمن يدعي أنهم روسية، وأن السد قد اندك منذ زمان، فهو مخالف لما أخبر النبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها، ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل؛ لأن نقيض الخبر الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم، ولم يثبت في كتاب اللّه ولا سنة نبيه ﷺ شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالته على المقصود»[1].

وقد يقول قائل: إن النبي ﷺ أخبر عن بدء انفتاح السد في زمانه حيث قال: «لا إله إلا اللّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم

= المسلمة- على ارتباط وثيق بعلماء أهل السنة المشهود لهم بالعلم والتقوى، ودع عنك آراء المخالفين؛ واستجب لقول ربك وخالقك جل جلاله وتقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

(٣) انظر: «أضواء البيان» للإمام العلامة محمد الأمين الشنقيطي (٤/١٣٩).

(١) انظر: «أضواء البيان» للإمام العلامة محمد الأمين الشنقيطي (٤/١٤١).

من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه- وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها-» ومعنى هذا أن السد كل يوم يزداد في الانفتاح، حتى تلاشى في زماننا هذا.

والجواب عن هذا أن يقال: قد أخبر اللّه ورسوله عن خروج يأجوج ومأجوج وعن اندكاك السد، وأنه لا يتم إلا عند اقتراب الساعة، وبعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، دل على ذلك قول اللّه سبحانه ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾.

ودل عليه جملة من نصوص السنة، كحديث النواس بن سمعان، وحديث أبي هريرة، وحديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم ذكرها.

والمقصود: أنه لا يجوز للمسلم أن يأخذ ببعض النصوص ويترك بعضاً، ففي حديث زينب المتقدم أخبر الرسول ﷺ عن انفتاح السد قدر تحليقة إصبعيه، وفي حديث أبي هريرة أخبر أنهم كل يوم يفتحون من السد قليلاً ثم يبيتون، فيعود السد كما كان، إلى أن يأذن اللّه لهم بالخروج في آخر الزمان، وهذا ظاهر الدلالة في أن اندكاك السد لا يكون إلا في آخر الزمان قبل قيام الساعة، عندما يأذن اللّه لهم بالخروج. ويضاف إلى ذلك: أن حديث النواس بن سمعان دل على أن ذلك لا يكون إلا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، فيلزم من قولهم هذا أن يكون الدجال قد خرج وعيسى عليه السلام قد نزل وهذا ظاهر البطلان.

أخي القارئ الكريم: هذه هي أقوال كبار علماء أهل السنة، واضحة بينة صريحة، شافية كافية، معتمدين في ذلك على كتاب اللّه جل

وعلا وعلى صحيح سنة رسول الله ﷺ، ليس كما يقول طارق السويدان إنه لا يوجد عنده دليل على من هم بالضبط -أي يأجوج ومأجوج- وهذه مصيبة، إذا لم يوجد عند طارق السويدان دليل، ثم يتأول ويتكلم بكلام هو مخالف لما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ ولو أنه تكلم عن يأجوج ومأجوج دون أن يتطرق إلى من هم، والتزم عقيدة أهل السنة، ولا سيما مع عدم وجود دليل عند طارق السويدان، بل ثبت الدليل الذي يخالف قوله من أن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين، وكما قلت: لو أنه رجع لأهل العلم لكفوه مؤنة هذا التخرُّص والتكلُّف والتأوُّل، وفتح باب التأويل والتخرُّص من غير أهلية النظر والاستدلال، وامتلاك آليات الاجتهاد، خطير جداً؛ لأن هذا الباب يفتح المجال لأهل البدع والأهواء والعقلانيين، أفراخ المعتزلة، أن يقولوا في الدين ما شاءوا، بحجة أنهم يفهمون من هذه الآية كذا، ومن الحديث كذا، وهم لا يملكون مقومات هذا الفهم ولا أُسِّه ولا أصوله، فيفتحون باب شر على المسلمين.

ثم هناك إشارة لطيفة، وهي أن أهل الصين يوجد فيهم -ولله الحمد والمنة- أكثر من مائة مليون مسلم، ويأجوج ومأجوج أمتان مفسدتان كافرتان، لا يوجد فيهما مسلم واحد.

وعلى كُلٍّ: فإنَّ اجتهاد من هو ليس أهلاً للاجتهاد، يرد عليه إيرادات وإشكالات كثيرة، ولو أن طارق السويدان التزم ما جاء في القرآن الكريم، وصح في سنة سيد المرسلين ﷺ، وأقوال العلماء

الراسخين، لكان خيراً وأعظم أجراً.

أخي القارئ الكريم: ليكن ارتباطك بعلماء أهل السنة قوياً وثيقاً، واحرص كل الحرص على عقيدتك، التي هي أعز ما تملك، وأعظم ما تقضي الأوقات في معرفتها والحرص عليها، واجعل تلقيك لعقيدتك من علماء أهل السنة فإنهم الذين تُتلقى على أيديهم عقيدة أهل السنة السائرين على منهج السلف الصالح، وفق الله الجميع لطاعته، ورزق الله الجميع العلم النافع والعمل الصالح.



قوله: «**فقال في قولته المشهورة، في رواية يقال إنها ضعيفة، ويقال أنها صحيحة، على كل حال السيرة لا تعامل معاملة الحديث؛ لأن ليس لنا مصدر آخر غير ذلك، فقال: واللّه يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر، ما تركته حتى يفصل اللّه بيننا**»(١).

هذا الكلام فيه نظر كبير، لما قد يترتب عليه من نتائج فاسدة.

فالقول بأن السيرة لا تعامل معاملة الحديث، هكذا دون ضوابط، وبيان وتبيين وتفصيل، قول مردود، وكان يجب على طارق السويدان السكوت عن قوله: السيرة لا تعامل معاملة الحديث، أو التفصيل؛ لأنه لا يجوز الإجمال عند الحاجة إلى التفصيل والتوضيح، لا سيما أنه قعّد قاعدة، وهي: أن السيرة لا تعامل معاملة الحديث.

والمرور على هذه المقولة مروراً سريعاً، دون التنبه لما سيحصل للمستمع من التشويش والالتباس والاغترار بهذه القاعدة المردودة، أمر مردود.

والمعروف من قواعد أهل العلم: أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة(٢)، وقد يحصل للمستمع تسليم بهذا الأمر، بأن السيرة لا تعامل

---

(١) انظر: «أشرطة السيرة النبوية» لطارق السويدان الشريط الثالث (وجه ب).

(٢) قال الأصوليون أن هذه القاعدة في حق النبي ﷺ آكد، أعني قاعدة: لا يجوز

معاملة الحديث، ويأخذ بهذا القول، وهو لا يعرف حقيقة ما يترتب على هذا القول من مفاسد ومضار؛ لأن السيرة كما هو معروف باب واسع، قد يدخل من خلاله أصحاب الأهواء والبدع لتأييد بدعهم وأهوائهم، وقد يدخل من خلاله المستشرقين وأذنابهم. وقد استشهد أهل البدع والأهواء والمستشرقين على باطلهم ببعض ما ورد في السيرة، بحجة أن السيرة لا تعامل معاملة الحديث، أو أن السيرة لا تطبق عليها مناهج المحدثين، وهذا غلط فاحش، وأمر شره مستطير، إذا تأمله المسلم بعقلٍ وحكمة وتؤدة، يجد أنه يترتب على القول بأن السيرة لا تعامل معاملة الحديث، أو أن السيرة لا تطبق عليها قواعد المحدثين، آثار سيئة للغاية.

ولو أن طارقاً السويدان -كما قلت سابقاً- سكت عن هذه المقولة، وهي أن السيرة لا تعامل معاملة الحديث، لكان أفضل، وإلا تكلم عليها وشرحها وبيّن مراده للمستمع؛ لأنه قد يغتر المستمع ويأخذها قاعدة مسلّمة عنده، والحق والصواب خلاف ذلك.

وكما معلوم -أيها المبارك- أن الأصل في قراءة السيرة ليس قراءة قصص وحكايات، وإنما قراءة عظة واعتبار؛ لأن بالسيرة أخذ الفوائد، وأخذ ما ينفع المؤمن ويبعث فيه أنواعاً من الخير والهدى والاستمساك

= تأخير البيان عن وقت الحاجة، لكنها لا تختص بالنبي ﷺ فمن تصدّر للناس فلا يجوز له أن يقرر أمراً خطيراً، كالقول بأن السيرة لا تعامل معاملة الحديث، ثم يمر عليها مروراً سريعاً دون بيان وتوضيح.

بالحق، قال جل وعلا: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وقد اعتنى أهل الحديث بسيرة النبي ﷺ وبذكر أحواله ومغازيه فيما أوردوه في كتب الحديث، فتجد في «صحيح البخاري» -رحمه اللّه- كتاب المغازي، وتجد في «صحيح مسلم» -رحمه اللّه- كتاب السير، وتجد في أبي دواد كذلك.

وقد اعتنى أهل الحديث بالسيرة في مصنفات مفردة، ذكروا فيها أسانيدهم فيما يتعلق بالسيرة، لكن فيها ما يصح وفيها ما ينكر، وكما قال الحافظ زين الدين العراقي: «وليعلم الطالب أن السير تجمع ما صح وما قد أنكر».

وإذا نظرنا إلى ما كتب في كتب السيرة من أخبار النبي ﷺ وما حصل له عليه الصلاة والسلام، لوجدنا أن السيرة استُدل ببعض أحداثها وبعض ما ذكر فيها، على أمورٍ هي عند أهل العلم من علماء السلف الصالح باطلة مردودة، ويرون أن تلك الاستدلالات ليست بصحيحة، بل ربما كانت شركية، وهذا يقودنا إلى وجوب معرفة منهج أهل الحديث في تطبيق قواعدهم في السيرة، كما هو مطبق على الحديث الشريف، على تفصيل في ذلك كما سيأتي.

ومن ظنَّ أن كل ما ذكر في كتب السيرة صحيح في نفسه، فظنُّه هذا غلط؛ لأن هناك أشياء نسبت لسيرة المصطفى ﷺ وهي لا تصح، بل

هي غلط في التوحيد، وغلط في السنة، ولو نظرنا في «تاريخ الطبري» الذي يورد السيرة بأسانيدها، لوجدنا أن في بعض أسانيده الكذاب والمجهول والضعيف.

وهناك أمر مهم جداً يجب التنبه له، وهو أن يهاب طلبة العلم والدعاة من أن يخوضوا في السيرة بلا علم، فلا يظننّ الظان أن السيرة قصة تقبل الزيادة والنقصان؛ لأنه ربما سمع بعضُ المسلمين من يميل إلى القصص والحكايات، سواءً من جهة التعليم أو من جهة الإلقاء، وذكر أحداثاً من السيرة، وحلاّها بزيادات ضعيفة، ظاناً أن باب السيرة باب قصص، وأنه يسوغ فيه الضعيف، وهذا ليس بصواب بل هو باطل في نفسه إذ السيرة هي سيرة المصطفى ﷺ فلا تقبل الضعيف؛ لأن الكلام على سيرة المصطفى ﷺ نوع من الكلام على سنته ﷺ، فتنبه يا رعاك الله، فإنه مهم جداً، جعلك الله من أهل النعيم.

وكن -أخي القارئ الكريم- مستذكراً قول الحافظ زين الدين العراقي: «وليعلم الطالب أن السيرة تجمع ما صحَّ وما قد أنكر» ودع عنك -وفقك الله- قول من يقول إن السيرة لا تعامل معاملة الحديث. وهذا كله يبيِّن شدة الحاجة إلى نقد الروايات في السيرة والتاريخ، ويوجب على أهل العلم القيام بهذا الواجب، وتطبيق مبدأ: من أين لك هذا؟! على الروايات التي في السيرة النبوية، والتعرف على عقائد واتجاهات رواة الأخبار ومؤلفي الكتب في السيرة، وتمييز أهل العدالة والثقة من غيرهم من أهل الأهواء.

وإن في السيرة والتاريخ، بل وحتى بعض المصنفات الحديثية، مئات الروايات والقصص المدونة على طريقة الجمع والتقميش[١]، وهي بحاجة إلى غربلة ونقد من الباحثين المتخصصين قبل الاستدلال بها والاعتماد عليها؛ ليُعرف الصحيح من السقيم. وقد كانت تلك الروايات المكذوبة في كتب السيرة صيداً ثميناً عند المستشرقين فرحوا به، فعكفوا على استخراجها من بطون كتب السيرة ونشروها وأبرزوها لأنها تسير في نفس الاتجاه الذي يهدفون إليه، وتخدم أغراضهم التي فرَّغوا أنفسهم لها، من صدِّ المسلمين عن دينهم عن طريق التشكيك في دينهم، وقد بنوا على تلك الروايات التي تلقوها عن سلفهم من الرواة الوضَّاعين أحكاماً تجافي الواقع الحقيقي، بل وبعضها يناقض الواقع المعلوم بالضرورة.

ثم بعد هذا البيان الواضح الذي قدّمته لك -يا رعاك اللّه- يقول طارق السويدان: السيرة لا تعامل معاملة الحديث -هكذا- ثم ينتقل إلى كلام آخر[٢]، دون بيان وتفصيل، كما قدّمت لك، والأمر كما ترى خطير قد تترتب عليه آثار ونتائج وخيمة.

إن ذكر الروايات في كتب السيرة والتاريخ المشهورة، مثل ابن

---

(١) التقميش: جمع الشيء من ها هنا وها هنا، والمراد به عند علماء الجرح والتعديل جمع الروايات قبل نقدها، على حدِّ قول يحيى بن معين: إذا كتبت فقمِّش، وإذا حدَّثت ففتِّش. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨٥/١١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» الشريط الثالث (الوجه ب) لطارق السويدان.

سعد، وخليفة بن خياط، والطبري، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، وابن الأثير، والذهبي، وابن كثير، لا يعطي لها صفة الصدق والثبوت، ما لم تكن صدقاً في الواقع؛ لأن هؤلاء العلماء الأماجد ينقلون على الرواية، ولا يشترطون الصحة في كل ما يروون، حتى ولو كانت السيرة المصدر الوحيد -كما يقول طارق السويدان- فلا بد من التثبُّت والتأكُّد، وتطبيق قواعد المحدثين، على تفصيل في ذلك ذكرته لك، وسيأتي مزيد بيان -إن شاء اللّه تعالى-.

وكما تعلم -أخي القارئ الكريم- جعلك من عباده الصالحين- أن العلم والعدل صفتان مطلوبتان، وخاصة لمن يشتغل بالحكم وفصل النزاع في القضايا والمسائل المختلف فيها، ونقد الروايات في السيرة أو في التاريخ يحتاج إلى هذه الصفة المهمة في الناقد، فلا بد من العلم بطرق النقد وضوابطه ومناهج العلماء في ذلك، ومعرفة الرواة وأحوالهم وما قيل فيهم جرحاً وتعديلاً، وهو علم جليل برع فيه علماء الحديث، وقرروا له قواعد في كتب مصطلح الحديث، وكتب الجرح والتعديل، فالدارس للروايات في السيرة أو في التاريخ محتاج إلى هذا العلم، وإلى الرجوع إلى أهل التخصص في هذا الفن، وهم علماء الحديث.

يقول شيخ الإسلام صدقاً وإمام المسلمين حقاً أبو العباس أحمد بن تيمية -رحمه اللّه وأكرم مثواه-: «المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث، كما

نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة، وكذلك الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجالٌ يعرفون به، والعلماء بالحديث أجلّ هؤلاء قدراً، وأعظمهم صدقاً وأمانة وعلماً وخبرة، فيما يذكرونه من الجرح والتعديل»[١].

وإليك -أخي القارئ الكريم- مزيداً من التفصيل والتوضيح :

أولى الخطوات في نقد الروايات في السيرة أو التاريخ: نقد السند، فإن الرواية إما أن تكون مسندة أو غير مسندة، فإذا كانت الرواية مسندة، أي يتقدم متنها إسناد، فإن النقد يكون أولاً لإسنادها وفي هذه الخطوة اختصار للجهد؛ لأن السند إذا لم يصمد أمام النقد، فلا حاجة عندئذٍ إلى تضييع الوقت في الحكم على الرواية[٢].

وقد كان المنهج الذي سلكه غالب الإخباريين والمؤرخين هو إسناد كل رواية، فتأتي الرواية في السيرة أو في التاريخ تتقدمها سلسلة الإسناد، ولا شك أن هذه الطريقة في التدوين قد يسرت على الباحثين نقد النصوص التي في السيرة أو في التاريخ، ومعرفة صحة الرواية من عدمها، فإن الإسناد يشترط لصحته أن يكون متصلاً برواية العدل الضابط عن

---

(١) انظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧/٣٤).

(٢) «منهج النقد عند المحدثين» للدكتور/ أكرم العمري «مجلة مركز بحوث السنة والسيرة» (العدد) (٣/١١٩).

مثله، من مبتدأ السند إلى منتهاه، من غير شذوذ ولا علة[١].

والمنهج المتبع في نقد السند هو منهج علماء الجرح والتعديل، والرجوع إلى أقوالهم في الرواة، وإثبات لقيا بعضهم بعضاً أو معاصرتهم على الأقل.

وقد وضع علماء الحديث ضوابط للروايات، سواءً كانت في السيرة أو في التاريخ، فبالنسبة لصفات رجال إسناد الرواية في السيرة أو التاريخ فإن علماء الحديث يتساهلون من ناحية قلة الضبط في الراوي، أو الغفلة، أو أن يكون مستور الحال غير متكلَّم فيه بجرح ولا تعديل.

أما بالنسبة لاتصال الإسناد فإنه يكثر في أسانيد الرواية في السيرة أو في التاريخ رواية المرسل والمنقطع والمعضل والمعلَّق [٢]، وهذه الأمور قادحة في الخبر عند علماء الحديث، وتجعله من قسم المردود.

والذي ينبغي أن يُعلم: أن هذا التساهل عند علماء الحديث ليس شاملاً لجميع الأخبار في السيرة أو في التاريخ، بل إنهم يقيدون ذلك التساهل برواية الأخبار الواردة في وصف المغازي ووصف البلدان وما شابهها، وإذا لم يوجد معارض أصلح لتلك الرواية الواردة في هذه الصفة وما شابهها.

أما الروايات المتعلقة بمسائل العقيدة، والأحكام الشرعية والحكم

---

(١) انظر: «فتح المغيث شرح ألفية الحديث» للسخاوي (١/١٤).

(٢) انظر لتعريفها: «تيسير مصطلح الحديث» د. محمود الطحان (ص٦٨).

على الأشخاص وبيان المواقف في الفتن، وخاصة ما كان بين الصدر الأول، فإن علماء الحديث لا يتساهلون في ذلك أبداً، ويوجبون البحث والتدقيق والتطبيق لشروط صحة الحديث، من حيث العدالة في الرواة، والاتصال في الإسناد، وانتفاء الشذوذ والعلة القادحة.

ولهذا قال الكافيجي[1] -رحمه الله تعالى-: «يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث النبوي».

أيها الأخ المبارك: إن المطلوب هو اعتماد الروايات الصحيحة، وتقديمها في بناء الصورة الناصعة لسيرة النبي ﷺ ثم الروايات الحسنة، ثم ما يعضدها من الضعيف، وعند التعارض يقدم الأقوى.

إن السيرة النبوية مليئة بالأحكام الشرعية التي يستفاد منها في كثير من جوانب الحياة، ولذا يجب أن تكون ثابتة بالأحاديث الصحيحة حتى يعتمد عليها، وكتب الحديث تحتوي على مادة السيرة الموثقة حسب منهج المحدثين، فلذلك يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والسير والتواريخ العامة، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة؛ لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سنداً ومتناً.

إن أهمية الإسناد في نقل الروايات التاريخية، وخاصة السيرة النبوية، عظيمة، لا ينكرها إلا غِرٌّ جاهل، فلولاه لما تميز الصادق المستقيم من الأفاك

---

(١) انظر: «علم التاريخ عند المسلمين» للدكتور صالح العلي (ص٣٣٦)، وانظر: «منهج نقد الروايات التاريخية» د. محمد السلمي.

الأثيم، وإذا كان الإسناد مجموعة من الرجال، والرجال يعتريهم الخطأ والنسيان والغلط، وأحياناً تعمد الكذب والتزوير والافتراء، فإن علم الجرح والتعديل قد عرض لكل ما يخطر في البال من هذه الأمور التي تتعلق بأحوال الرواة، والتي يمكن أن تقدح في صحة الرواية أو الإسناد.

إن أوائل مصنفات السيرة قد كتب في عصر مبكر، والصحابة لا زال الكثير منهم على قيد الحياة، وهم على علم دقيق وواسع بالسيرة النبوية؛ لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها، هذا التبكير في الكتابة قلل إلى حدٍ كبير من احتمال تعرضها للتحريف أو المبالغة والتهويل أو الضياع، وإضافة إلى أهميتها التي ذكرنا، يضاف إليها ميزة أخرى، وهي أنها أوردت الكثير من الأحداث والروايات يتقدمها الأسانيد، ومعظم رواة السيرة هم من الرواة والمحدثين الذين نجد تراجم لهم في كتب الرجال، وأوضحت هذه الكتب أحوالهم، وبينت ما قيل فيهم من جرح وتعديل، مما يسهل على الباحث معرفة قوة الرواية[1]، أو الحديث أو ضعف الرواية.

---

(١) كما قلت لك -وفقك الله- سابقاً- إن علماء الحديث بالنسبة لرواية السيرة أو التاريخ لهم ضوابط في رواية رجال السيرة، منها ما هو صالح. وهي أحاديث من اتهموا في حفظهم ولم يتهموا في عدالتهم ولم يصلوا إلى حد الفحش في الغلط، ومنها ما هو مردود، وهي أحاديث من اتهموا في عدالتهم أو فحش غلطهم، فأما هؤلاء فقد اتفق علماء الحديث على ردِّ رواياتهم وعدم الاعتبار بها.

أخي القارئ الكريم -حفظك الله من كل سوء- الموضوع بحاجة إلى مزيد بسط، ولكن المقام لا يسمح؛ لئلا نطيل عليك في التفصيل والبيان، وفيما تقدم بإذن الله كفاية لمن وفقه الله، جعلك الله منهم.

وكما تعلم -أيها الأخ الموفق- الموضوع خطير جداً، وحساس وقد بينت لك -فيما تقدم- كيف أن أهل الضلالة والبدع والأهواء والمستشرقين يفرحون بمثل هذه المقولة التي تقول: إن السيرة لا تعامل معاملة الحديث وهي مقولة خطيرة في معناها ومبناها ثم تفاجأ من صاحب المقولة بالمرور عليها سريعاً دون تعليق وتوضيح، ثم يعلّل طارق السويدان بأن السيرة لا تعامل معاملة الحديث بتعليل عليل؛ لأنه ليس لنا مصدر آخر، يا سبحان اللّه! وهل هذا التعليل يكفي بتبرير قاعدة أن السيرة لا تعامل معاملة الحديث؟ وكما ذكرت لك -أخي القارئ الكريم- أن الكلام في السيرة نوع من الكلام في سنته ﷺ وذكرت لك أن للمحدثين منهج في معاملة السيرة كما تقدم.

أخي في اللّه: احرص على معرفة كل ما يختص في أمور دينك وأمور سنة نبيك ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام، من العلماء الربانيين الراسخين، وكن يقظاً منتبهاً لكل قاعدة أو تقرير أي أمر، واعرضه على علماء أهل السنة والأثر السائرين على منهج السلف الصالح من الصحابة الكرام وتابعيهم. أسأل اللّه لي ولك ولجميع المسلمين العمل الصالح، والعلم النافع، والنجاة من النار، والفوز بالجنة، بمنه وجوده وإحسانه.

❑ ❑ ❑

قوله: «**كذلك هذا الدين لا يستحي أبداً أن يناقش أي قضية بكل ما فيها ولو كان فيها تبجح على الله رب العالمين، فالإسلام مستعد أن يناقشها ويحاور أهل الكفر فيها، فانظر إلى قضية مثل قضية ادعاء أن لله تعالى ولد، هذه قضية عظيمة تكاد السماوات تنشق منها وتخر الجبال، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى يناقش الكفار فيقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ تبرهنون لي أن لله ولد أنا أول من سيعبده**»[١].

أخي القارئ الكريم: هكذا قال طارق السويدان -هداه الله- إن هذا الدين لا يستحي أبداً أن يناقش أي قضية بكل ما فيها ولو كان فيها تبجح على رب العالمي،ن وهذه المقولة ليست على إطلاقها، ولا ينبغي التحدث بمثل هذا الكلام في ملأ يحضره الكثير من المسلمين.

ومقولة: إن هذا الدين لا يستحي أبداً من مناقشة أي قضية، حتى لو كان فيها تبجح على رب العالمين، سيئة مؤلمة ومؤسفة أن تخرج من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا بد من التأدب مع الله ﷻ وحفظ جانب ربوبيته وألوهيته، وتقديسه جلّ جلاله، وتبارك اسمه، وعزَّ سلطانه، سبحانه وبحمده.

ويجب على من تصدّر للمسلمين انتقاء الكلمات التي تبعث في قلب المؤمن الخضوع والخشوع، والابتعاد عن كل كلمة يكون فيها لبس

(١) انظر: «أشرطة مفاهيم إسلامية» لطارق السويدان الشريط الأول، (وجه أ).

وتشويش، كمقولة إن الإسلام يناقش كل قضية ولو كان فيها تبجح على الله رب العالمين، وكلمة تبجح لا يليق اقترانها بالله رب العالمين، ويجب على المسلم أن يتخير الكلمات المناسبة التي تليق بخالق السماوات والأرض ومن فيهن، سبحانه وبحمده، هو كما أثنى على نفسه، لا نحصي ثناءً عليه.

والحقيقة أن هذه المقولة لا تحتاج إلى تعليق، فالقارئ الموفّق يتحفظ عليها؛ لما فيها من تجاوز وإساءة في استخدام الألفاظ.

وهناك مسألة مهمة جداً، وهي: من الذي سيناقش؟ وكيف يناقش؟ وما هي حدود المناقشة، كان يجب على طارق السويدان بيانها، ولا يجوز له أن يقول الإسلام مستعد أن يناقش ويحاور، دون وضع ضوابط واضحة في صفات المناقش وغير ذلك، ولا ينبغي أن يقال للمستمع إن هذا الدين لا يستحي أبداً من المحاورة والنقاش في أي قضية ولو كان فيها تبجح على الله رب العالمين، دون بيان للمستمع وتفصيل؛ لأن في هذا تشويشاً على المستمع، فهل يجوز للعامي أن يناقش؟ وهل يجوز للجاهل أن يناقش وهو غير متمكن علمياً؟

لا شك أن الحوار والمناقشة مبدأ إسلامي لا غبار عليه، يكون مشروعاً، ويكون واجباً، ويكون مندوباً، حسب الموضوع وتوقع النفع من المصالح الدينية والدنيوية، وله ضوابط، من أهمها: تخصص المحاور في الموضوع الذي يحاور فيه، سواءً تعلق الأمر بحوار العقائد أم بحوار آخر.

وأمانة المحاور في حوار الدين، فغير الأمين في دينه لا يمكن أن يكون محاوراً.

ولا بد أن يتوقع أن الحوار فيه جلب مصلحة، أو درء مفسدة، دينية أو دنيوية، فلا حوار لمجرد الجدل الذي لا طائل من ورائه فتنبه -يا رعاك الله-.

إذا علم هذا -أيها الأخ المبارك- كان عليك أن تعلم أنه لا ينبغي ولا يجوز تفسير القرآن الكريم بما تفهمه من الآية فلا بد من الرجوع إلى التفاسير المعتمدة عند علماء أهل السنة السائرين على منهج السلف الصالح كتفسير الطبري وتفسير ابن كثير وتفسير الشنقيطي وغيرها من التفاسير الموثوق بها عند العلماء الراسخين. إذا عرفت هذا يا رعاك الله فإن استشهاد طارق السويدان بقوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فيه نظر وإجمال واختصار مُخل، وكان الأوْلى به التنبيه إلى أقوال أهل العلم في ذلك قبل تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إذا برهنتم لي أن لله ولد أنا أول من سيعبده، هكذا فسره طارق السويدان، وهذا التفسير فيه نظر وتفصيل لدى المحققين من أهل العلم، وقد فصّل في هذه الآية الإمام محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره القيم «أضواء البيان» وذكر أقوال المفسرين، ورجح الصحيح من أقوالهم، وردّ على القول المرجوح بالحجة والبرهان، فإليك أيها الأخ الموفق ما قال -رحمه الله وأكرم مثواه-:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.

اختلف العلماء في معنى ﴿إِنْ﴾ في هذه الآية.

فقالت جماعة من أهل العلم: إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا: إنها شرطية، اختلفوا في المراد

بقوله: فأنا أول العابدين.

فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين للّه، على فرض أن له ولداً.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين للّه جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد.

وقالت جماعة آخرون: إن لفظة ﴿إن﴾ في الآية نافية.

والمعنى: ما كان للّه ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِين﴾ ثلاثة أوجه:

الاول: وهو أقربها: أن المعنى: ما كان للّه ولد، فأنا أول العابدين للّه، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والثاني: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِين﴾: الآنفين المستنكفين من ذلك القول الباطل المفترى على ربنا، الذي هو ادعاء الولد له.

والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها، فهو عبد بفتح فكسر على القياس، وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وأعبد أن أهجو كليباً بدوام

فقوله: وأعبد، يعني: آنف وأستنكف.

ومنه أيضاً قول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- المشهورة: أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت، فولدت لستة أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد؛ لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي -رضي الله عنهما-: إن الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥]، ويقول جل وعلا: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان -رضي الله عنه-، أن يبعث إليها، لترد ولا ترجم.

ومحل الشاهد من القصة، فوالله: [ما عبد عثمان] أي ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الجاحدين النافين أن يكون لله ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة: أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة والعربية التي نزل بها القرآن، وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء.

وإنما اخترنا أن ﴿إِنْ﴾ هي النافية لا الشرطية، وقلنا إن المصير إلى ذلك متعين في نظرنا؛ لأربعة أمور:

الأول: إن هذا القول جار على الأسلوب العربي، جرياناً واضحاً، لا إشكال فيه، فكون (إن كان) بمعنى (ما كان) كثير في القرآن، وفي كلام العرب، كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:٢٩] أي: ما كانت إلا صيحة واحدة.

فقولك مثلاً: معنى الآية الكريمة: ما كان للّه ولد، فأنا أول العابدين، الخاضعين للعظيم الأعظم، المنزّه عن الولد، أو الآنفين المستنكفين، من أن يوصف ربنا بما لا يليق بكماله وجلاله، من نسبة الولد إليه، أو الجاحدين النافين أن يكون لربنا ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، لا إشكال فيه، لأنه جار على اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، دال على تنزيه اللّه، تنزيهاً تاماً عن الولد، من غير إيهام البتة لخلاف ذلك.

الأمر الثاني: أن تنزيه اللّه عن الولد، بالعبارات التي لا إيهام فيها، هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة في القرآن، كما قدمنا إيضاحه في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ [الكهف:٤] الآية، وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ [مريم: ٨٨-٨٩] والآيات الكثيرة التي ذكرناها في ذلك تبين أن (إن) نافية.

فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يبين أن المراد في محل النزاع النفي الصريح

وخير ما يُفسّر به القرآن: القرآن، فكون المعبر في الآية: وما كان للرحمن ولد، بصيغة النفي الصريح، مطابق لقوله تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ [الإسراء: ١١١] الآية، وقوله

تعالى في أول الفرقان: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما على القول بأن (إن) شرطية، وأن قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ جزاء لذلك الشرط، فإن ذلك لا نظير له البتة في كتاب الله، ولا توجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى.

الأمر الثالث: هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى في اللغة العربية، إلا معنى محذور، لا يجوز القول به بحال، وكتاب الله جل وعلا، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لا يجوز القول بها.

وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية، وقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِين﴾ جزاء الشرط، لا معنى لصدقه البتة، إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب في الشرطية المتصلة، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذي هو الشرط وتاليها الذي هو الجزاء، والبرهان القاطع على صحة هذا هو: كون الشرطية المتصلة، تكون في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً، أو أحدهما لو

أزيلت أداة الربط بين طرفيها، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذه قضية في غاية الصدق كما ترى، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها قضية كاذبة بلا شك، ونعني بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول، واللام من الطرف الثاني، فإنهما لو أزيلا وحذفا صار الطرف الأول: كان فيهما آلهة إلا الله، وهذه قضية في منتهى الكذب، وصار الطرف الثاني: فسدتا السماوات والأرض، وهذا قضية في غاية الكذب كما ترى.

فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته.

فإن كان الربط صحيحاً فهي صادقة، ولو كذب طرفاها أو أحدهما عند إزالة الربط.

وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة، كما لو قلت: لو كان هذا إنساناً لكان حجراً، فكذب الربط وكذب القضية بسببه كلاهما واضح.

وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جدا، كالآية التي ذكرنا، وكقولك: لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً، ولو كان الفرس ياقوتاً لكان حجراً، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط.

ومثال صدقها مع كذب أحدهما: قولك: لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت، فإنها شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر؛ لأن عدم النجاة من الموت صدق، وكون زيد في السماء كذب، وهكذا مثَّل بهذا المثال البناني، وفيه عندي أن هذه الشرطية التي مثَّل بها اتفاقية لا لزومية، لا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث.

والمثال الصحيح: لو كان الإنسان حجراً لكان جسماً.

واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات منصب على خصوص التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك.

وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربي.

والتحقيق الأول:

ولم يقل أحد البتة بقول ثالث في مدار الصدق والكذب في الشرطيات.

فإذا حققت هذا، فاعلم أن الآية الكريمة، على القول بأنها جملة شرط وجزاء، لا يصح الربط بين طرفيها البتة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال.

وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير، أن مصب الصدق والكذب في الشرطيات إنما هو التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك.

فمعنى الآية عليه باطل، بل هو كفر.

لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد، لم يكن أول العابدين، وفساد هذا المعنى كما ترى.

وأما على القول الأول -الذي هو الصحيح- أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين طرفي الشرطية.

فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء: لا يصح الربط بين طرفيها البتة أيضاً، إلا على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال؛ لأن كون المعبود ذا ولد، واستحقاقه هو أو ولده العبادة، لا يصح الربط بينهما البتة إلا على معنى هو كفر باللّه؛ لأن المستحق للعبادة لا يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً.

وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ إنما يعلق به محال لاستحالة؛ كون الرحمن ذا ولد.

ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال.

فتعليق عبادة اللّه -التي هي أصل الدين- على كونه ذا ولد، ظهور فساده كما ترى، وإنما تصدق الشرطية، في مثل هذا لو كان المعلق عليه مستحيلاً، فادعاء أن (إن) في الآية شرطية مثل ما لو قيل: لو كان معه آلهة لكنت أول العابدين له، وهذا لا يصدق بحال؛ لأن واحداً من آلهة

متعددة، لا يمكن أن يعبد، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال.

ويتضح لك ذلك بمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الآية.

فإن قوله (إذاً): أي لو كان معه غيره من الآلهة، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به، وغالب بعضهم بعضاً، و لم ينتظم للسماوات والأرض نظام، ولفسد كل شيء.

كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢] على الصحيح الذي هو الحق من التفسيرين.

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلاً هو: طلبهم طريقاً إلى مغالبته، كما يفعله بعض الملوك مع بعضهم.

والحاصل: أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلاً أيضاً؛ لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل.

أما كون الشرط مستحيلاً، والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر؛ فهذا مما لا يصح بحال.

ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك في غلطه.

ولا شك في أن كل شرطية صدقت، مع بطلان مقدمها الذي هو

الشرط، وصحة تاليها الذي هو الجزاء، لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه، وأن ما ظنه الفخر الرازي من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك، وإيضاح ذلك: أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط، لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما البتة.

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله في الآية الكريمة التي نحن بصددها، بل هو مناقض لمعنى الآية.

والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضروري البطلان.

ونعني بأول الأمرين المذكورين: كون الشرط اتفاقية لا لزومية أصلاً.

وبالثاني منهما: كون الصدق المذكور، من أجل خصوص المادة.

ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به في العقليات، وأنه في حكم الكذب؛ لعدم اضطراده، لأنه يصدق في مادة ويكذب في أخرى.

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرد، الذي لا يختلف باختلاف المادة بحال.

ولا شك أن كل قضية شرطها محال لا يضطرد صدقها إلا إذا كان جزاؤها محالاً خاصة.

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء، فلا بد أن يكون ذلك لكونها اتفاقية أو لأجل خصوص المادة فقط.

فمثال وقوع ذلك لكونهما اتفاقية: قولك: إن كان زيد في السماء لم ينج من الموت.

فالشرط -الذي هو كونه في السماء- باطل، والجزاء -الذي هو كونه لم ينج من الموت- صحيح.

وإنما صحَّ هذا لكون هذه الشرطية اتفاقية.

ومعلوم أن الاتفاقية لا علاقة بين طرفيها أصلاً.

فلا يقتضي ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر، ولا نفيه، فلا ارتباط بين طرفيها في المعنى أصلاً، وإنما هو في اللفظ فقط.

فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلاً، ولا ارتباط بينهما إلا في اللفظ.

فهو كقولك: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل.

وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَدا﴾ [الكهف: ٥٧] فراجعه.

ومعلوم أن قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـنِ وَلَدٌ﴾ لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية، و لم يدع أحد أنها لا علاقة بين طرفيها أصلاً.

ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط: ما مثَّل به الفخر

الرازي لهذه الآية الكريمة، مع عدم انتباهه لشدة المنافاة بين الآية الكريمة وبين ما مثّل لها به، فإنه لما قال: إن الشرط الذي هو ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ باطل، والجزاء الذي هو: ﴿فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ صحيح.

مثل لذلك بقوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، يعني أن قوله: إن كان الإنسان حجراً شرط باطل، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ فكون الإنسان حجراً، وكون الرحمن ذا ولد، كلاهما شرط باطل.

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، دل ذلك على أن الجزاء الصحيح في قوله: ﴿فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يصح الشرط الباطل الذي هو ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾.

وهذا غلط فاحش جداً، وتسوية بين المتنافيين غاية المنافاة؛ لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، إنما صدق لأجل خصوص المادة، لا لمعنى اقتضاه الربط البتة.

وإيضاح ذلك: أن النسبة بين الجسم والحجر، والنسبة بين الإنسان والجسم، هي العموم والخصوص المطلق في كليهما.

فالجسم أعم مطلقاً من الحجر، والحجر أخص مطلقاً من الجسم، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموماً مطلقاً، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصاً مطلقاً، فالجسم جنس قريب للحجر، وجنس بعيد

للإنسان، وإن شئت قلت: جنس متوسط له.

وإيضاح ذلك أن تقول في التقسيم الأول:

الجسم إما نامٍ، أي يكبر تدريجياً، أو غير نامٍ، فغير النامي كالحجر مثلاً، ثم تقسم النامي تقسيماً ثانياً؟ فتقول:

النامي إما حساس أو غير حساس، فغير الحساس منه كالنبات.

ثم تقسم الحساس تقسيماً ثالثاً فتقول:

الحساس إما ناطق أو غير ناطق، والناطق منه هو الإنسان.

فاتضح أن كلاً من الإنسان جسم صادق في كل تركيب، ولا يمكن أن يكذب بوجه، وذلك للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للإنسان، وكون الإنسان فرداً من أفراد أنواع الجسم، فلأجل خصوص هذا الملابسة بينهما، كان الحكم على الإنسان بأنه جسم صادقاً، على كل حال، سواء كان الحكم بذلك، غير معلق على شيء، أو كان معلقاً على باطل أو حق.

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صدق الربط بين الشرط والجزاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ بطلانه كالشمس في رابعة النهار.

والعجب كل العجب من عاقل بقوله؛ لأن المثال المذكور إنما صدق؛ لأن الإنسان يشمله مسمى الجسم.

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هي تباين المقابلة؛

لأن المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولد هي المقابلة بين الشيء ومساوي نقيضه.

وإيضاح المنافاة بين الأمرين: أنك لو قلت: الإنسان جسم، لقلت الحق، ولو قلت: المولود له معبود، أو المولود معبود، قلت الباطل الذي هو الكفر البواح.

ومما يوضح ما ذكرنا إجماع جميع النظار على أنه إن كانت إحدى مقدمتي الدليل باطلة، وكانت النتيجة صحيحة، أن ذلك لا يكون إلا لأجل خصوص المادة فقط، وأن ذلك الصدق لا عبرة به، فحكمه حكم الكذب، ولا يعتبر إلا الصدق اللازم المضطرد في جميع الأحوال.

فلو قلت مثلاً: كل إنسان حجر، وكل حجر جسم، لأنتج من الشكل الأول: كل إنسان جسم، وهذه النتيجة في غاية الصدق كما ترى.

مع أن المقدمة الصغرى من الدليل التي هي قولك: كل إنسان حجر، في غاية الكذب كما ترى.

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا، ولولا ذلك لكانت كاذبة؛ لأن النتيجة لازم الدليل، والحق لا يكون لازماً للباطل، فإن وقع شيء من ذلك فلخصوص المادة كما أوضحنا.

وبهذا التحقيق تعلم أن الشرط الباطل لا يلزم، وتطرد صحة ربطه إلا بجزاء باطل مثله.

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] فهو غلط فاحش، والفرق بين معنى الآيتين شاسع، فظن استوائها في المعنى باطل.

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ الآية، معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربي، لا إيهام فيه؛ لأنا أوضحنا سابقاً أن مدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزئها، فهي صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط، كما تقدم إيضاحه قريباً.

فربط قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بقوله: ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ [يونس: ٩٤] ربط صحيح لا إشكال فيه؛ لأن الشاك في الأمر شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لا يخفى، فهي قضية صادقة، مع أن شرطها وجزاءها كلاهما باطل بانفراده، فهي كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيا: ٢٢] فهي شرطية صادقة؛ لصحة الربط بين طرفيها، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] على القول بأن (إن) شرطية، لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزائها البتة؛ لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال.

ولذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل أهل

الكتاب»[١] فنفي الطرفين مع أن الربط صحيح، ولا يمكن أن ينفي ﷺ هو ولا غيره الطرفين في الآية الأخرى، فلا يقول هو ولا غيره: ليس له ولد ولا أعبده.

وعلى كل حال، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والداً أو ولداً فلا يصح.

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث: «لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب» [رواه قتادة بن دعامة مرسلاً].

وبنحوه قال بعض الصحابة فمن بعدهم، ومعناه صحيح بلا شك.

وما قاله الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة يستغربه كل من رآه؛ لقبحه وشناعته، ولم أعلم أحداً من الكفار في ما قصّ اللّه في كتابه عنهم يتجرأ على مثله أو قريب منه.

وهذا مع عدم فهمه لما يقول وتناقض كلامه.

وسنذكر هنا كلامه القبيح؛ للتنبيه على شناعة غلطه، الديني واللغوي.

قال في «الكشاف» ما نصه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١] وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف»، كتاب أهل الكتاب (حديث١٠٢١١)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١١٦/١١).

واضحة تدلون بها، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وألا يترك للناطق به شبهة إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بإثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها.

ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان اللّه تعالى خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله.

فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه: نفي أن يكون اللّه تعالى خالقاً للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماحة المذهب، وضلالة الذاهب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته، والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه.

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير -رحمه اللّه- للحجاج -حين قال: «أما واللّه لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى» - :«لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك».

وقد تمحل الناس؟ أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء

بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين للّه المكذبين قولكم لإضافة الولد إليه. اهـ الغرض من كلام الزمخشري.

وفي كلام هذا من الجهل باللّه وشدة الجراءة عليه، والتخبط والتناقض في المعاني اللغوية، ما اللّه عالم به.

ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله.

وسنبين لك ما يتضح به ذلك، فإنه أولاً قال: إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح توردونه، وحجة واضحة تدلون بها، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل؛ لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد، فلا شك أن ذلك يقتضي أن ذلك الولد لا يستحق العبادة، بحال ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه؛ لأن أباه مثله في عدم استحقاق العبادة، والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرط في إيمان كل موحد، فمن أي وجه يكون هذا الكلام صحيحاً؟

أما في اللغة العربية فلا يكون صحيحاً ألبتة.

وما أظنه يصح في لغة من لغات العجم، فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه.

فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه؛ لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالاً مثله.

والزمخشري في كلامه، كلما أراد أن يأتي بمثال في الآية خارج عنها، اضطر إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً.

فضربه للآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه.

فإنه قال فيها: إن الحجاج قال لسعيد بن جبير: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى.

قال سعيد للحجاج: لو علمت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك.

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال، ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثل له به الزمخشري لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله.

فقوله: لو علمت أن ذلك إليك في معنى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾، فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد.

فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله.

ولكنه لم يقل هذا؛ لأنه ليس له معنى صحيح، فلا يجوز المصير إليه.

وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة في كلامه القبيح البشع الشنيع

الذي يتقاصر عن التلفظ به كل كافر.

فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً، فإنه قال فيه: ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان اللّه تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله.

فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي: إن كان اللّه خالقاً للكفر في القلوب إلخ.

فخلق اللّه للكفر في القلوب وتعذيبه الكفار على كفرهم، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد للّه، وهذا المستحيل في زعمه الباطل، إنما علق عليه أفظع أنواع المستحيل، وهو زعمه الخبيث أن اللّه إن كان خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه، فهو شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فانظر -رحمك اللّه- فظاعة جهل هذا الإنسان باللّه، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية.

لأنه جعل قوله: إن كان اللّه خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى «إن كان للرحمن ولد» في أن الشرط فيها مستحيل، وجعل قوله في اللّه إنه شيطان لا إله -سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً-.

كقول النبي ﷺ: «أنا أول العابدين».

فاللازم لكلامه أن يقول: لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له، ولا يخفى أن الادعاء على اللّه أنه شيطان، مناقض لقوله: فأنا أول العابدين.

وقد أعرضت على الإطالة في بيان بطلان كلامه، وشدة ضلاله وتناقضه؛ لشناعته ووضوح بطلانه، فهي عبارات مزخرفة، وشقشقة لا طائل تحتها، وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربي للآية، والتناقض الواضح، وكم من كلام مليء بزخرف القول، وهو عقيم لا فائدة فيه، لا طائل تحته، كما قيل:

وإني وإني ثم إني إنني ... إذا انقطعت نعلي جعلت لها شسعاً

فظل يعمل أياماً رويته ... وشبه الماء بعد الجهد بالماء

واعلم أن الكلام على القدر، وخلق أفعال العباد، قدمنا منه جملاً في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، ولا يخفى تصريح القرآن بأن اللّه خالق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] الآية، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢] وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فالإيمان بالقدر خيره وشره، الذي هو من عقائد المسلمين، جعله الزمخشري يقتضي أن للّه شيطان، سبحان اللّه وتعالى عما يقوله الزمخشري

علواً كبيراً، وجزى الزمخشري بما هو أهله.

الأمر الرابع: هو دلالة استقراء القرآن العظيم أن اللّه تعالى إذا أراد أن يفرض المستحيل؛ ليبين الحق، علقه أولاً بالأداة التي تدل على عدم وجوده وهي لفظة لو، ولم يعلق عليه ألبتة إلا محالاً مثله، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] الآية.

وأما تعليق ذلك بأداة لا تقتضي عدم وجوده كلفظة (إن) مع كون الجزاء غير مستحيل، فليس معهوداً في القرآن.

ومما يوضح هذا المعنى الذي ذكرنا: المحاورة التي ذكرها جماعة من المفسرين، التي وقعت بين النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، وهي وإن كانت أسانيدها غير قائمة، فإن معناها اللغوي صحيح.

وهي أن النضر بن الحارث كان يقول: الملائكة بنات اللّه، فأنزل اللّه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١] الآية.

فقال النضر للوليد بن المغيرة: ألا ترى أنه قد صدقني؟

فقال الوليد: لا ما صدقك، ولكنه يقول:

ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أي: الموحدين، من أهل مكة المنزهين له عن الولد.

فمحاورة هذين الكافرين، العالمين بالعربية، مطابقة لما قررنا.

لأن النضر قال: إن معنى الآية على أن (إن) شرطية مطابقة لما يعتقده الكفار من نسبة الولد إلى اللّه، وهو معنى محذور، وأن قال: إنَّ (إنْ) نافية، وإن معنى الآية على ذلك هو مخالفة الكفار وتنزيه اللّه عن الولد.

وبجميع ما ذكرنا يتضح أن (إنْ) في الآية الكريمة نافية.

وذلك مروي عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد وغيرهم.

تنبيه

اعلم أن ما قاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن (إنْ) نافية يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق اللّه.

قالوا: لأنه إن كان المعنى: ما كان للّه ولد، فإنه لا يدل على نفي الولد، إلا في الماضي، فللكفار أن يقولوا إذاً، صدقت، لم يكن له في الماضي ولد، ولكن الولد طرأ عليه، بعد ذلك لما صاهر الجن، وولدت له بناته التي هي الملائكة.

وإن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لا شك في عدم صحته؛ لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له، ولو كان له أثر لما كان اللّه يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة (كان) الدالة على خصوص الزمن الماضي، في نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٧]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

[النساء: ٩٦]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها.

فإن معنى تلك الآيات: أنه كان و لم يزل.

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذي زعموه الذي هو قولهم: صدقت، ما كان له ولد في الماضي، ولكنه طرأ، لقالوا مثله في الآيات التي ذكرنا.

كأن يقولوا: ﴿كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ٢٤] في الماضي ولكنه طرأ عليه عدم ذلك، وهكذا في جميع الآيات المذكورة ونحوها.

وأيضاً: فإن المحذور الذي زعموه، لم يمنع من إطلاق نفي الكون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومن أوضحها في محل النزاع: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الآية.

و لم يمنع من نفي القرآن للولد في الزمن الماضي في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] فإن الكفار لم يقولوا يوماً ما: صدقت، ما اتخذه في الماضي، ولكنه طرأ عليه اتخاذه.

وكذلك في قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ [الفرقان: ٢] وقوله: ﴿لَمْ

يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، لأن (لم) تنقل المضارع إلى معنى الماضي.

والكفار لم يقولوا يوماً: صدقت، لم يتخذ ولداً في الماضي، ولكنه طرأ عليه اتخاذه، و لم يقولوا: لم يلد في الماضي، ولكنه ولد أخيراً.

والحاصل: أن الكفار لم يقروا أن اللّه منزّه عن الولد، لا في الماضي ولا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متجدد.

وبذلك تعلم أنَّ ما زعموه من إيهام المحذور في كون (إن) في الآية نافية، لا أساس له ولا معول عليه، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس لها معنى في اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذي لا يجوز في حق اللّه بحال.

واعلم أن كلام الفخر الرازي في هذه الآية الكريمة الذي يقتضي إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية، لا شك في غلطه فيه.

وأما إبطاله لقول من قال: إن المعنى: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين له، والمكذبين لكم في ذلك، فهو إبطال صحيح، وكلامه فيه في غاية الحسن والدقة، وهو يقتضي إبطاله بنفسه، لجميع ما كان يقرره في الآية الكريمة.

والحاصل: أن كون معنى (إنْ) في الآية الكريمة هو النفي، لا إشكال فيه، ولا محذور ولا إيهام، وأن الآيات القرآنية تشهد له؛ لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن.

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء، فلا يصح له معنى غير محذور

في اللغة، وليس له في كتاب الله نظير؛ لإجماع أهل اللسان العربي على اختلاف المعنى في التعليق بـ (إنْ)، والتعليق بـ (لو).

لأن التعليق بـ (لو) يدل على عدم الشرط، وعدم الشرط استلزم عدم المشروط، بخلاف (إنْ).

فالتعليق بها يدل على الشك في وجود الشرط بلا نزاع.

وما خرج عن ذلك من التعليق بها، مع العلم بوجود الشرط أو العلم بنفيه فلأسباب أُخر، وأدلة خارجة، ولا يجوز حملها على أحد الأمرين المذكورين، إلا بدليل منفصل كما أوضحناه، في غير هذا الموضع.

تنبيه

اعلم أن ما ذكرنا من أن (لو) تقتضي عدم وجود الشرط، وأن (إن) تقتضي الشك فيه، لا يرد عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، كما أشرنا له قريباً.

لأن التحقيق أن الخطاب في قوله: (إن كنت في شك) خطاب للنبي ﷺ، والمراد به: من يمكن أن يشك في ذلك من أمته.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] الآية، دلالة القرآن الصريحة على أنه ﷺ يتوجه إليه الخطاب من الله، والمراد به التشريع لأمته، ولا يراد هو ﷺ ألبتة بذلك الخطاب.

وقدمنا هناك أن من أصرح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية، فالتحقيق أن الخطاب له ﷺ والمراد أمته لا هو نفسه؛ لأنه هو المشرع لهم بأمر اللّه.

وإيضاح ذلك أو معنى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ أي: إن يبلغ عندك الكبر يا نبي اللّه والداك أو أحدهما فلا تقل لهما أف.

ومعلوم أن أباه مات وهو حمل، وأمه ماتت وهو في صباه، فلا يمكن أن يكون المراد: إن يبلغ الكبر عندك هما أو أحدهما، والواقع أنهما قد ماتا قبل ذلك بأزمان.

وبذلك يتحقق أن المراد بالخطاب غيره من أمته، الذي يمكن إدراك والديه أو أحدهما الكبر عنده.

وقد قدمنا أن مثل هذا أسلوب عربي معروف، وأوردنا شاهداً لذلك رجز سهل بن مالك الفزاري في قوله:

يا أخت خير البدو والحضارة ... كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطارة ... إياك أعني واسمعي يا جاره

وقد بسطنا القصة هناك، وبيّنا أن قول من قال: إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية: لكل من يصح خطابه من أمته، ﷺ لا له هو نفسه، باطل، بدليل قوله تعالى بعده في سياق الآيات: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩] الآية.

والحاصل: أن آية: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، لا ينقص بها الضابط الذي ذكرنا؛ لأنها كقوله: ﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤] إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أنه هو ﷺ، لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة، ولكنه يأمر وينهى؛ ليشرع لأمته على لسانه.

وبذلك تعلم اطّراد الضابط الذي ذكرنا في لفظة (لو)، ولفظة (إن)، وأنه لا ينتقض بهذه الآية.

هذا ما ظهر لنا في هذه الآية الكريمة، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا غرر ولا إيهام، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

أخي القارئ الكريم لقد أطلت في النقل، ولكن لا بد من ذلك، وأنت كما قرأت الاختلاف في تفسير الآية بين المفسرين، وعرفت الراجح من أقوالهم، والرد على من خالف القول الراجح.

وخلاصة القول في الآية: أن معنى قوله تعالى: ﴿الْعَابِدِينَ﴾ أي: الممتنعين من القول بأن للرحمن ولد، بمعنى: ما كان لله ولد فأنا أول العابدين المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وهو قول ابن عباس ترجمان القرآن -وحسبك بابن عباس-، وعرفت خطأ

طارق السويدان في تفسيره لهذه الآية حيث قال طارق السويدان تبرهنون لي أن لله ولد أنا أول من سيعبده. وهو قول بعيد جداً عن المراد بالآية فالله المستعان، وكان يجب على طارق السويدان عدم تفسير الآية الكريمة إلا وهو متأكد مما يقول، ولا ينشر في أشرطة سيارة قولاً مخالفاً مرجوحاً ضعيفاً، يعارض الراجح من أقوال المفسرين المعتمدين.

ومن هنا تعلم أيها الأخ الموفق خطورة التفوّه والتكلم بكلام مردود مخالف. فليكن أخي القارئ الكريم ارتباطك بالعلماء الراسخين الربانيين، ودع عنك الأهواء والآراء التي لا دليل عليها.



خاتمة

«في وجوب ارتباط المسلمين بعلماء الأمة الراسخين»

هذه أخي القارئ الكريم خاتمة في أمرٍ مهم للغاية، ألا وهو وجوب ارتباط المسلمين بعلماء الأمة الراسخين الربانيين، الذين تسعد الأمة بوجودهم، وتكون قلقة مهتزة عند عدم وجودهم، العلماء رواد سفينة النجاة، وهم أعلم بما يصلح المسلمين في دنياهم وآخرتهم، وهم الذين يدلون المسلمين ويرشدونهم عن علم راسخ ونظر ثاقب بصير.

تطمئن الأمة بوجود العلماء الراسخين الموقعين عن رب العالمين العالِمِينَ بمراد الله ﷻ ورسوله ﷺ.

العلماء هم قادة الأمة إلى الخير والصلاح والفقه في الدين، وهم منارات الهدى ومصابيح الدجى.

يقول الإمام ابن سيرين: «إن قوماً تركوا العلم ومجالسة العلماء، واتخذوا محاريب، فضلوا فيها حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، ثم خالفوا السنة فهلكوا، والله ما عمل عامل بغير علم إلا ما يفسد أكثر مما يصلح»[(١)].

فمن أراد أن ينال شيئاً من إرث النبوة، فعليه بمجالسة العلماء، والسعي إليهم، والأخذ عنهم، والحرص على الاستفادة منهم. والمسلم الفطن الحريص على دينه لا يذهب لغير العلماء الراسخين؛ لأن أعز ما

---

(١) انظر: «الترغيب والترهيب» للأصفهاني (٢/٩٨).

يملك هو دينه، فلا يأمن على دينه غير العلماء الربانيين.

ولا شك أن العلماء هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه: فقد أخذ بحظ وافر.

العِلْمُ ميراثُ النبيِّ كَذَا أَتَى ... في النصِّ والعُلماءُ هُمْ ورّاثُهُ
ما خلّف المُختارُ غيرَ حَدِيثِهِ ... فِينَا فَذَاكَ متاعُهُ وأَثَاثُهُ

قال سهل بن عبدالله التستري: «من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء، فلينظر إلى مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان أيش تقول في رجلٍ حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته، ويجيء آخر فيقول: ما تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يحنث بهذا القول. وليس هذا إلا لنبيٍّ أو لعالم، فاعرفوا لهم ذلك»(١).

وهم المصابيح التي تستضيء بها الأمة، وتنير لها الطريق، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وهم حجة الله تعالى في الأرض، فهم الذين يصلحون ما أفسد الناس، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر على بصيرة، وقد أعزهم الله سبحانه وتعالى بهذا العلم، ورفعهم به مكاناً علياً، فقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) انظر: «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (ص١٨٤).

ولم يساوهم سبحانه وبحمده بغيرهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم أهل خشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإن من علامات رشد الأمة: ارتباطها بعلمائها الراسخين الربانيين، والورود والصدور عن آرائهم وتوجيهاتهم، والذب عن أعراضهم.

وقد أنكر اللّه جل وعلا على من لم يرجع إلى العلماء في الأمور المهمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

إن من علامات تيه الأمة وضياعها: البعد عن العلماء الراسخين الربانيين، وتركهم وعدم الالتفاف حولهم والصدور عنهم، ومن علامات تيه الأمة: الخروج عن العلماء بمسوغات وتزيينات شيطانية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وإن الخروج على العلماء وعدم الارتباط بهم ارتباطاً وثيقاً هو بداية الانحراف، وسبيل الضياع، ولم يخرج بعض الناس على حكامهم إلا بعد خروجهم على علمائهم.

إن من أعظم ما يُكاد للدعوة الإسلامية: فصل المسلمين عن علمائهم، وذلك بنزع الثقة بعلماء الأمة بطرق شيطانية؛ كي يتسنى لأحداث الأسنان، وسفهاء الأحلام، اتخاذ القرارات والفتاوى الخطيرة، والتي لو عرضت على

أبي بكر أو عمر -رضي اللّه عنهما- لجمعا لها كبار الصحابة.

وحين تفقد الأمة علماءها الربانيين، فإنها تصبح آنئذٍ وسط صحراء التيه، بلا مرشد يقودها ويخرجها من تيهها، وإنما يصبح قادتها أصحاب الثقافات السطحية[1] الذين يظنون أو يُظن بهم أنهم علماء، لكثرة ما يؤلفون من كتب فكرية!!؟، مع أنها لا تنطق بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، ولا يُشم منها رائحة العلم، وإنما تنطق بزخرف القول من الآراء والتخرصات التي لا تمت للعلم بصلة.

وإن الملاحظ على كثير من المسلمين اليوم قلة الارتباط بالعلماء الراسخين، وثني الركب في حِلَقِهم، ولهذا نفقت عندهم الأباطيل، وراجت على عقولهم الأضاليل[2].

ثق -أيها الأخ المبارك- أن العلماء -وخاصة علماء المملكة العربية السعودية- قد رسا طودهم، وهطل جودهم، وزخر بحرهم، وفاض نهرهم بالعلم والتربية، فتخرج من مدرستهم أجيال وأجيال، فهم سياحون في أرض اللّه يعلمون الناس السنة والتوحيد، فشكر اللّه سعيهم، ومتعنا اللّه ببقائهم.

فعن عبداللّه بن عمرو -رضي اللّه عنهما- قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن

---

(١) تنبه -يا رعاك اللّه- وكن حذراً من هؤلاء الذين يقال لهم: مفكر إسلامي، وقد يكون منهم من لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، وفكره بعيد كل البعد عن الإسلام الصافي النقي.

(٢) انظر: «الجماعات الإسلامية» تأليف: سعود العنزي (ص٢١).

يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا»[١].

وفي رواية «فيبقى ناس جهال يستفتون، فيفتون برأيهم، فيُضِلون ويَضِلون».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»[٢]: «وفي هذا الحديث: الحث على حفظ العلم والتحذير من ترئيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرياسة الحقيقية وذم من يقدم عليها بغير علم».

أخي القارئ الكريم: العلماء عند أهل السنة والجماعة السائرين على منهج السلف الصالح، هم الدعاة إلى الله، خلافاً لما شاع بين كثير من المسلمين، من أن العلماء غير الدعاة، وهذا تفليس للعلماء من دورهم الريادي والقيادي؛ ليخلو الجو لأنصاف الفقهاء والمتعالمين، بدعوى أن العلماء لا يفقهون واقعهم، فضلاً عن واقع أمتهم، فيصفونهم بعلماء حيض ونفاس، وعلماء ذيل بغلة السلطان.

وهذا كلام يريدون به صد المسلمين عن علمائهم الراسخين، وكيف يكون ذلك والعلماء هم أئمة الدين وأمناء الشريعة؟ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري (ح١٠٠)، ومسلم (ح٢٦٧٣).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١/٢٦٤).

والعلماء أفضل الناس بعد الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والعلماء والأمراء هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

والعلماء هم أهل الذكر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، والذكر هو العلم والدعوة، فعلى هذا العلماء هم أهل الدعوة إلى الله.

وعلى ذلك، فالعلماء هم القادة الذين يتصدرون الدعوة إلى الله ليوجهوا مسارها، ويرشدوا يقظتها، ويعمِّقوا فهمها، ويوجهوا شبابها، فإن لم يكن الأمر كذلك حدث الخلل، ودخل الدخن، وحلّ الوهن، كما نبه عليه رسول الله ﷺ في حديث عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- في رفع العلم بقبض العلماء، وحينئذٍ يتخذ الناس رؤوساء جهالاً، فتغرق السفينة بانحراف الدعوة عن سبيل الله[1] جل وعلا.

ويحذر عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- المسلمين من الارتباط بغير العلماء، فيقول -رضي الله عنه-: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه بذهاب أهله، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق»[2].

(١) انظر: «بصائر ذوي الشرف» للشيخ سليم الهلالي (ص٣١).

(٢) انظر: «الاعتصام» (١/١٠٧).

إذا عُلم هذا -أيها الأخ الموفق- فإنه يجب الارتباط بالعلماء الربانيين، وتوقيرهم أحياءً وأمواتاً، ومحبتهم، وأخذ العلم عن الأحياء منهم، والتلمذ على كتب الموتى منهم، والذب عنهم ميزة من ميزات منهج أهل السنة السائرين على منهج السلف الصالح.

والعكس بالعكس، فإن الوقيعة في العلماء، ونبزهم بالألقاب، ولمزهم بإلصاق التهم الباطلة والعيوب المختلفة، من علامات أهل البدع والضلال، الذين زيّن لهم الشيطان ما كانوا يعلمون.

ونختم -أخي القارئ الكريم- بالخطبة التي افتتح بها الإمام أحمد ابن حنبل، إمام أهل السنة كتابه القيم: «الرد على الزنادقة والجهمية»، ففي هذه الخطبة يبيّن -رحمه الله- فضل العلماء الراسخين، ويثني على وجودهم بين ظهراني المسلمين، لهداية الناس وتحذيرهم سبل الغواية والضلال. قال -رحمه الله-: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويُبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تعالى تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، ويتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلين».

أيها الأخ الموفق: المقام لا يسمح بأكثر من ذلك، واللبيب تكفيه الإشارة، فكن -يا أخي- مرتبطاً بالعلماء الراسخين، حريصاً على الاستفادة منهم، مهتماً غاية الاهتمام بلقائهم والاستماع لهم، والاستئناس بهم، والمحبة لهم، واتباعهم؛ لصدقهم وعلمهم وورعهم وتقواهم، وإياك -يا رعاك الله- أن تضيع دقيقة واحدة وأنت لم تستفد منهم طالما أنهم على قيد الحياة، فما أظن أنك تعتز بشيء -يا رعاك الله- كاعتزازك بدينك، والحرص على الحفاظ على دينك، الذي هو أعظم وأغلى ما تملك.

أسأل الله لي ولك التوفيق والسداد والهدى والرشاد، وأن يجمعنا ووالدينا وجميع المسلمين بجنات النعيم بمقعد صدق عند مليك مقتدر اللهم إنا نسألك قلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وعملاً صالحاً، ورزقاً واسعاً، وإيماناً كاملاً، ويقيناً صادقاً. كما أسأله لطارق السويدان الهدى والرشاد والسداد، وأن يحبب إليه قبول النصيحة والرجوع إلى الحق. هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً.

كتب ذلك

الفقير إلى الله تعالى

أحمد بن عبدالعزيز بن محمد التويجري

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

١٦ - السراج الوهاج في بيان المنهاج
الشيخ أبو الحسن السليماني ، تقديم جماعة من هيئة كبار العلماء وغيرهم
١٧ - الوصايا السنية للتائبين إلى السلفية
الشيخ أبي عبدالله أحمد بن محمد الشحي
١٨ - الفتاوى الجلية عن المناهج الدعوية
الشيخ أحمد بن يحي النجمي ، تعليق حسن بن محمد الدغريري
١٩ - تنوير العينين في أحكام الأضاحي والعيدين
الشيخ أبوالحسن مصطفى بن إسماعيل السليماني
٢٠ - إتحاف النبيل بأجوبة أسئلة علوم الحديث والعلل والجرح والتعديل ١/٢
الشيخ أبو الحسن السليماني تحقيق أبو إسحاق الدمياطي ، تقديم الشيخ مقبل بن هادي الوادعي
٢١ - الرد الشرعي المعقول على المتصل المجهول
ويليه رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب الشيخ أحمد بن يحيي النجمي
٢٢ - شرح الموقظة للذهبي
الشيخ سليم بن عيد الهلالي
٢٣ - المورد العذب الزلال فيما انتقد على بعض المناهج الدعوية من العقائد والأعمال
الشيخ أحمد بن يحيي النجمي ، تقديم الشيخ صالح الفوزان والدكتور ربيع بن هادي المدخلي
٢٤ - الطريقة المثلى
السيد أبي الخير الطيب نور الحسن خان - تحقيق أبي عبدالباري الأثري
٢٥ - الورد المقطوف
أبي عبدالرحمن فوزي الأثري
٢٦ - الإرهاب
بقلم زيد بن محمد بن هادي المدخلي
٢٧ - رسالة الأفراح لأصحاب الفضيلة
محمد بن إبراهيم ، عبدالرحمن السعدي ، عبدالعزيز بن باز، محمد بن صالح العثيمين
٢٨ - الحد الفاصل بين الحق والباطل
بقلم الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي
٢٩ - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل
تأليف فضيلة الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي
٣٠ - العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم
بقلم الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي
٣١ - أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره
بقلم الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي